

مخارج الأصوات وصفاتها عند أبي البقاء العكبري

أ.م.د. علي خليف حسين

كلية الآداب / جامعة بغداد

alikleef@yahoo.com

الملخص :

سلّطت هذه الدراسة الضوء على البحث الصوتي عند أبي البقاء العكبري، ولاسيّما مخارج الأصوات وصفاتها، لمعرفة ما توصّل إليه في هذا المجال؟ وما الذي أضافه للدرس الصوتي القديم؟ ومدى مطابقته ومخالفته سواء للقدامى أم للمحدثين؟ وبلا شك أن ما أضافه يستدعي الوقوف عنده، فهو ليس مقلّداً، أو تابعاً، وإنّما متفرد ومعطاء.

إنّ هذه الدراسة في هدفها وغايتها، إنّما تأتي في مجال التعريف بإنجازات وأعمال وجهود علماء العربية في أبرز مجالات علم اللغة، وهو علم الأصوات، الذي مهما وقف عنده المحدثون بالدرس والتحليل، فإنّه يتطلب المزيد من الدراسات التي تدرس البيئة المحيطة بولادة علم الأصوات عند العرب، والظروف التي رافقته منذ النشأة، والبلوغ، والاكتمال، فهو علم حيوي غير جامد أو منفصل عن العلوم الأخرى.

الكلمات المفتاحية : (الصوت، العكبري، مجهور، مهموس).

Critical View in Vocabulary and Application

Dr. Ali Khliaf Hussien

College of Arts –University of Baghdad

Abstract:

Thus this study sheds a light on phonological research by Abulbaqa' Alaqbary specially the voices and its features to know what he achieved in this field and what he added for phonology subject, its similarity and difference for both the old and modern scholars.

No doubt that what he added must be reviewed as he was not imitator or following others but he was innovator and creator.

This study in its objective and purpose comes in the field of introducing the achievements, works and efforts of Arabic language scholars

in the linguistics emergent fields which is phonetics that in spite of the studies and analysis of linguists but it requires more studies that studies the environment that surround the generation of phonetics in Arabic language and the conditions that accompany it since the evolution and maturity .It is vital science not frozen or separated from other sciences

Key wards : (Phonetic , Alaqbary, voiceless , voiced)

المقدمة

المتصفح للدراسات العربية وغير العربية، سيجد الكثير منها قد تناولت النظام الصوتي للغة العربية، ونظرة إلى الخلف بإرجاع الزمن إلى بداية التأليف المنهجي عند العرب، سيجد الباحث أنّ علماء العربية القدامى أفردوا مساحات واسعة في مؤلفاتهم للحديث عن أصوات العربية على مستوى الأفراد والتركيب؛ فتحدثوا عن مخارج الأصوات، وصفاتها، وتعاملياتها، وقد وقف الدارسون المحدثون وقفة إعجاب لما توصل إليه العلماء العرب من نتائج تتطابق مع ما توصل إليه الدرس الصوتي الحديث، وهم لا يملكون إلّا إمكانات ذاتية، ويفتقرون إلى الوسائل التقنية التي أوجدها التقدم العلمي في العصر الحديث.

وعلى الرغم من أن الكثير من العلماء قد سار على نهج سيبويه (ت ١٨٠هـ) في حديثه عن مخارج الأصوات، وصفاتها، وتعاملياتها، فإنّ هناك علماء أضافوا للدرس الصوتي العربي، وفسّروا، وحلّلوا عبارات، ومصطلحات، ونصوص سيبويه، بل إن ابن جني (ت ٣٩٥ هـ) أول من أطلق مصطلح (علم الأصوات) ليميّزه من باقي العلوم الأخرى. فأعطى له بعداً منهجياً، وتنظيميا فتح المجال واسعا لمن بعده ليتناول الأصوات بالدرس والتحليل.

وبغض النظر عما تناوله ابن جني، وإسهاماته في هذا المجال، وكذلك علماء التجويد، فإنّ علماء النحو الذين ألفوا في مجال النحو العربي، عندما يتناولون ظاهرة الإدغام، ينقلون مقدّمة سيبويه مع بعض الاختلاف عند بعضهم، بالتقديم والتأخير،

والاختصار، وكاد أن يكون أبو البقاء العكبري (ت ٦١٦ هـ) واحداً من أولئك العلماء الذين ساروا على نهج سيبويه، لولا حديثه الموسّع في صفات كل صوت، الذي عرضه في آخر حديثه عن مخارج الأصوات وصفاتها، إذ جاء بأسلوب علمي ومنهجي رصين لم يسبقه إليه أحد من قبل، ولا سيما الجدول الذي وضعه لصفات الأصوات، وإعطاء كل صوت صفاته العامة.

بل إنّه وصف بعض الأصوات التي هي محل خلاف بين القديم والحديث، وتطابقت نظرتهم مع المحدثين، مخالفاً القدامى، مع منهج يستدعي التوقف عنده طويلاً، إذ نقل مقدّمة سيبويه كما هي، ولكن عندما يتحدث عن الأصوات يصفها كما يراها هو، فخالف سيبويه، واقترب من المحدثين كثيراً في مواضع الخلاف، وهذا أمر سيجعل الكثير من الباحثين يعيدون النظر في أحكامهم، ويراجعون نتائجهم، ويعيدون تصفّح المكتبة العربية الزاخرة بالمؤلفات والاجتهادات التي بلا شك ستعطي دفعة قوية لإعادة دراسة البحث الصوتي عند العرب، لذلك سلّطت هذه الدراسة الضوء على البحث الصوتي عند أبي البقاء العكبري، ولاسيماً مخارج الأصوات وصفاتها، لمعرفة ما توصّل إليه في هذا المجال؟ وما الذي أضافه للدرس الصوتي القديم؟ ومدى مطابقته ومخالفته سواء للقدامى أم للمحدثين؟

وبلا شك أن ما أضافه يستدعي الوقوف عنده، فهو ليس مقلّداً، أو تابعاً، وإنّما متفرد ومعتّاء .

إنّ هذه الدراسة في هدفها وغايتها، إنّما تأتي في مجال التعريف بإنجازات وأعمال وجهود علماء العربية في أبرز مجالات علم اللغة، وهو علم الأصوات، الذي مهما وقف عنده المحدثون بالدرس والتحليل، فإنّه يتطلب المزيد من الدراسات التي تدرس البيئة المحيطة بولادة علم الأصوات عند العرب، والظروف التي رافقته منذ

النشأة، والبلوغ، والاكتمال، فهو علم حيوي غير جامد أو منفصل عن العلوم الأخرى. نسأل الله السداد والتوفيق.

أبو البقاء العكبري

حياته وثقافته

نسبه وكنيته ولقبه :

عبد الله بن الحسين بن عبد الله بن الحسين، أبو البقاء محيي الدين العكبري البغدادي، الضرير، الازجي، النحوي (المنذري، ١٩٨٥ : ٣٧٨/٤) (بن خلكان، د. ت: ٢٨٦/٢) (القفطي، ١٩٥٥ : ٢١٣/٢) (الفيروزآبادي، ٢٠٠٠ : ١٠٨).

وأبو البقاء أشهر كناه . والعكبري أشهر ألقابه، وهي نسبة إلى (عكبر) بضم أوله، وإسكان ثانيه، وفتح الباء والراء، وهي بلدة صغيرة تقع على نهر دجلة، وتبعد عن بغداد خمسة فراسخ (بن خلكان، د. ت: ٢٨٦/٢) (الحموي، ١٩٧٧ : ١٤٢/٣). وله من الألقاب الأخرى (البغدادي) نسبة إلى بغداد، (والازجي) نسبة إلى المحلة التي كان يسكنها في بغداد، و(الحنبلي) نسبة إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ).

أما (النحوي)، و(اللغوي)، فنسبة إلى شهرته بتلك العلوم، والضرير، لأنه أصيب بالجدري في صباه، فأضره (الفيروزآبادي، ٢٠٠٠ : ١٠٨) (الصفوي، ١٩١١ : ١٧٨) (القفطي، ١٩٥٥ : ٢١٣/٢).

ولد العكبري في مدينة بغداد سنة (٥٣٨هـ) على الراجح بحسب ما نقلته الروايات، ومنها الرواية التي نقلها تلميذه ابن الدبّيثي (ت ٦٣٧هـ) فقال : (سألت الشيخ أبا البقاء عن مولده فقال : ولدت سنة ثمان وثلاثين وخمسة) (بن خلكان، د. ت: ٢٨٦/٢) (الصفوي، ١٩١١ : ١٧٩).

عاش أبو البقاء في مدينة (الازج) في بيت لم يكن مشهوراً في العلم، وكان متزوجاً وله أولاد، وكانت زوجته تقرأ عليه ليلاً في كتب الأدب وغيرها (الزبيدي، ١٩٧٣ : ٣٣١).

وله من الأولاد ثلاثة (عبد الرحمن)، وهو كان يقرأ على أبيه وله حظ كبير من العلم، و(عبد الله) و (أبو نصر عبد العزيز) (الفوطي، ١٩٦٣ : ٢٠٧/٤).

حياته الثقافية والعلمية :

نشأ أبو البقاء في بغداد في بيئة تزخر بالمعارف والعلوم، وكان مولعاً بالعلم، وطلبه فلم يدخر في طلب العلم جهداً، فتتلمذ على علماء عصره في مختلف العلوم من أبرزهم حكيم النهرواني (ت ٥٥٦هـ) وأخذ عنه الفقه، أبو زرعة الهمداني (ت ٥٩٦هـ) وأخذ عنه الحديث، أبو الحسن البطائحي (ت ٥٧٢هـ) وأخذ عنه القراءات، ومؤيد الدين بن القصاب (ت ٥٩٢هـ) وأخذ عنه اللغة، وهناك الكثير من العلماء والأعلام الذين أخذ عنهم العكبري الكثير من فروع العلم، وتركوا أثراً كبيراً في مسيرته العلمية (بن خلكان، د. ت. ٢٥/٣) (الصفوي، ١٩١١ : ١٧٩) (الحموي، معجم الأدباء، ١٩٣٦ : ١١/٤).

ونتيجة لشهرة أبي البقاء العلمية، وانتشار صيته بين الأقطار بعلمه، وسعة حفظه قصده طلاب العلم من مختلف البلدان ليأخذوا عنه، فكان ديناً، ورعاً، صالحاً، حسن الأخلاق، لم تخرج من رأسه كلمة إلا في علم، تفرّد في عصره بعلم العربية والفرائض، وكان يفتي في تسعة علوم، وكان واحداً زمانه في النحو، واللغة والحساب، والفرائض، والجبر، والمقابلة، والفقه، وإعراب القرآن، والقراءات الشاذة، وله في هذه العلوم مؤلفات كبار، وبقي منقطع النظير متوحداً في فنونه التي جمعها حتى رحلت إليه الطلبة من النواحي وانتفع به خلق كثير (بن خلكان، د. ت. : ٣٨٦/٢) (الفيروزآبادي، ٢٠٠٠ : ١٠٨) (السيوطي، ١٩٧٩ : ٢١٣/٢).

من أبرز تلاميذه: أحمد بن علي بن معقل، أبو العباس الأزري، ناظم الإيضاح والتكملة، ومؤلف المآخذ على شرح ديوان المتنبي (ت ٦٤٤ هـ)، والحسن بن أبي المعالي المعروف بـ(ابن الباقلاني) (ت ٦٣٧ هـ) ، وأبو الرجمي العروضي (ت ٦١١ هـ) وعبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد شارح نهج البلاغة (ت ٦٥٥ هـ)، وعبد الرحمن بن عبد اللطيف بن محمد (ت ٦٩٧ هـ)، وغيرهم من طلاب العلم الذين أصبحوا أعلاماً وشيوخاً ألفوا الكثير وعقدوا حلقات الدرس (الحموي، معجم الأدباء، ١٩٣٦: ١١/١٧٨).

مؤلفاته :

ترك أبو البقاء العكبري علماً زاخراً ضمته مؤلفاته الكثيرة، التي توزعت بين العلوم المختلفة، فألف أكثر من (٣٤) مصنفاً في الحديث، والفقه، والأدب، واللغة وغيرها. كل ذلك يدل على علميته وغازاتها، ومن أشهر مؤلفاته :

تفسير القرآن، والبيان في إعراب القرآن، إعراب الشاذ، ومتشابه القرآن، وعدد الآي، إعراب الحديث، كتاب التعليق في مسائل الخلاف في الفقه، وكتاب المرام في نهاية الأحكام في المذهب، كتاب مذاهب الفقهاء، اللباب في البناء والإعراب، شرح اللمع، شرح التلخيص في النحو، الإشارة في النحو، وغيرها من المؤلفات التي لازال بعضها مخطوطاً، وبعضها الآخر أخذ طريقه للنشر ليغني الدارسين معرفة وعلماء (الصفوي، ١٩١١ : ١٨٠) (الزبيدي، ١٩٧٣ : ٣٣٠) (السيوطي، ١٩٧٩ : ٣٩/٢).

وفاته :

توفي أبو البقاء العكبري في الثامن من شهر ربيع الآخر في بغداد عن عمر ناهز الثمانين سنة (٦١٦ هـ) فطوى الزمن صفحة عالم جليل ترك أثراً واضحاً في التاريخ اللغوي عند العرب بما تركه من إسهامات كبيرة في مختلف العلوم التي

أظهرت براعته وإطلاعه الواسع على معارف عصره ، وعلوم السابقين ، والتبحر في الصناعة النحوية وبسط الأقوال والآراء في المسائل اللغوية والنحوية بروح علمية تتسم بالقدرة على التمييز بين المناهج والتفاضل بينها .

أصوات العربية

البحث عن أبجدية صوتية تحدد أطر المنظومة الصوتية كان الشغل الشاغل للأمم، فلأصوات الأثر الكبير في تحديد السلسلة الكلامية، من حيث إن أية لفظة منطوقة تتكون من مجموعة من الأصوات، بوصف الصوت أصغر وحدة في السلسلة المنطوقة، وعلى الرغم من أن الصوت هو أثر يستند إلى النطق، فهو بحاجة إلى حوامل تحمله، تتنوع بتنوعه، وتتخذ رسماً كتابياً، فيقترن المنطوق بالمنظور، فكانت الأبجدية مطلباً ملحاً ينظم تراتيبية السلسلة الصوتية، ويبيدها عن التشبث في المنظومة اللغوية، وبلا شك أن الأصوات كثيرة، وقد يكون الرمز الكتابي قاصراً عن استيعابها، غير إن ذلك لا يعني تركها من دون إشكال تعطي لكن صوت رمزه الكتابي، ومن هنا عمد علماء العربية إلى البحث عن أبجدية صوتية ترمز وتشير إلى أصوات العربية، وبغض النظر عن منهجية هذه المنظومة الصوتية سواء أكانت أبجدية أم الفبائية تراعي الشكل في الترتيب من دون التسلسل المخرجي للصوت، فأنها محاولة أصيلة، تتم عن فكر ثاقب للمشكلة اللغوية وأبعادها الخطيرة في الحياة الإنسانية، فالشكل أعطى تسعة وعشرين رمزا كتابيا للأصوات العربية ومنحها للأصوات الأصول، غير أن هناك أصواتاً أخرى لم يوفق الشكل في إعطائها ذلك الرمز إلا من طريق التقريب بين صوتين، فاعتمدت السماع وليس الكتابة، ولا سيما في الأصوات المستحسنة والأصوات المستقبحة.

ومهما يكن من أمر فإن الأبجدية الصوتية التي تستند إلى الجانب النطقي في ترتيبها وتصنف الأصوات بحسب مخارجها الصوتية، تعد أشهر تصنيف في التراث

الصوتي عند العرب، وهي طريقة سار عليها المحدثون في تصنيف الأصوات بحسب مخارجها، لإعطاء ترتيب علمي لأصوات العربية. ومهما يكن من أمر فإن ترتيب الأصوات بحسب مخارجها وصفاتها قد بيّنه العكبري ومن سبقه من العلماء والعرب محددين ذلك الترتيب بتسعة وعشرين صوتاً فقال :

(والحروف الأصول تسعة وعشرون وهي الهمزة، والألف، والهاء، والعين، والحاء، والغين، والحاء، والقاف، والكاف، والضاد، والجيم، والشين، والياء، والراء، واللام، والنون، والصاد، والسين، والزاي، والطاء، والتاء، والذال، والظاء، والثاء، والذال، والفاء، والميم، والباء، والواو) (العكبري، د.ت : ٥٣٠).

فالأصوات التي عددها تسعة وعشرون لها رموز كتابية متعارفة عند العرب، ضمن أبجدية أو الفبائية تراعي كل صوت منها على وفق رمزه الكتابي، وبذلك يكون لها تسعة وعشرون رمزاً كتابياً، يطلق عليها في العصر الحديث (أبجدية صوتية أو الألفبائية الصوتية)، وهي عبارة عن مجموعة اصطلاحية من الرموز الكتابية تكوّن نظاماً صالحاً لتسجيل أصوات لغة من اللغات تسجيلاً دقيقاً، ويسمّى تسجيل الكلام بهذه الرموز (كتابة صوتية) (بشر، ١٩٧٥ : ١١٣) ، وإعطاء الرموز الكتابية للأصوات اللغوية المنطوقة، إنّما غايته تمييز الأصوات بعضها من بعض، فالرمز ليس صوتاً، وإنّما هو شكل يشير إلى مضمون الصوت، ومصطلح (حرف) الذي يطلقه العلماء العرب على الصوت يصدق على الشكل وليس المضمون، فهو رمز كتابي وليس الصوت نفسه.

فالفرق بين الصوت والحرف يستند إلى معيار الفرق بين العمل والنظر، فالصوت عملية نطقية قد تدخله في تجارب الحواس وعلى الأخص السمع والبصر يؤديه الجهاز النطقي حركة، وتسمعه الأذن، وترى العين بعض حركاته حين إدائه، أمّا الحرف فهو عنوان مجموعة من الأصوات يجمعها نسب معين، فإذا كان الصوت

يوجده المتكلم، فإن الحرف يوجده الباحث (كانتينو، ١٩٦٦: ٨) (النعيمي، د. ت. ١٠٦).

فإذا كان لكل صوت رمز كتابي واحد ضمن الأبجدية الصوتية العامة أو الأصلية، فهذا يعني عدم استعمال رموز لتمثيل الأصوات الثانوية والتنويعات الصوتية للصوت الأصلي .

غير أنّ هناك أصواتاً أصلية تتقارب مع مثيلاتها الثانوية أو المتصلة بها، تعامل كما لو كانت صوتاً واحداً يطلق عليها دانيال جونز (عائلة صوتية واحدة)، تتكوّن من صوت أساس إلى جوار أصوات متصلة به، ويطلق لفظ (فونيم) على مثل هذه العائلة الصوتية (السعران، ١٩٦٢: ١٢٤).

وقد لاحظ علماء العربية ذلك الأمر من خلال ما وصفوه بـ(الأحرف الفروع) بناء على تقسيمهم للأصوات إلى أصول وهي تسعة وعشرون صوتاً، لها تسعة وعشرون رمزاً (حرفاً)، وأخرى فروع تتوزع بين مستحسنة ومستقبحة، ولم يضعوا لها رموزاً كتابية كما وضعوا للأصوات الأصول، مع أنّ هناك تقارباً صوتياً يقرب الأصوات الفرعية إلى الأصوات الأصلية، من حيث إنّها إما نتاج ملامح صوتين أو نتاج تنويع صوتي لصوت أساس، خضع لنطق لهجي أكسبه نغمة نطقية ميزته من الصوت الأساس .

وقد ذكر العكبري هذه الأصوات، وعددها، وسبب تسميتها بالفروع بقوله : (ولهم ستة أحرف فروع مستحسنة وإنّما كانت فروعها لقربها من الأصول وامتزاجها بها وهي النون الساكنة، والألف الممالّة، وهمزة بين بين، وألف التفخيم، والصاد المشمّة صوت الزاي، والشين المشمّة صوت الجيم) (العكبري، د. ت. ٥٣٠).

فالقرب والامتزاج بالأصوات جعل هذه الأصوات الستة تسمى فروعاً، ومن ثمّ يمكن وصفها بالعائلة الصوتية الواحدة مع مثيلاتها من الأصول .

غير أنّ الكتابة الصوتية لا تنهض برموز أو أشكال تشير إليها، وإنّما يكون الاعتماد على المشافهة في تحسس سماع هذه الأصوات، والملاحظ على العكبري أنه لم يمثل لهذه الأصوات التي وصفها بالفروع المستحسنة، كما أنه وصف النون بالساكنة، في حين إنها عند سيبويه الخفية (سيبويه ، د.ت : ٤٠٦/٢).

ويبدو أنه يقصد بذلك النون الساكنة التي توصف بالإخفاء قبل أصوات الفم وهي (التاء، والثاء، والجيم، والدال، والذال، والزاي، والسين، والشين، والصاد، والضاد، والطاء، والظاء، والفاء، والقاف، والكاف)، فالنون عند نطقها وهي قبل هذه الأصوات تكون صفتها الإخفاء (عصفور، ١٩٨٦ : ٣٦٥) ، أمّا (بين بين) فهي بين الهمزة وبين الحرف الذي منه حركتها، إنّ كانت مفتوحة فهي بين الهمزة والألف، وإنّ كانت مكسورة فهي بين الهمزة والياء، وإنّ كانت مضمومة فهي بين الهمزة والواو، إلّا أنها ليس لها تمكّن الهمزة المخففة، فالمفتوحة مثل (سأل، سال) والمكسورة (سَمَم، سَمِمَ)، والمضمومة، (لَوَم، لَوَمَ) . وألف الإمالة نحو : عالم وخاتم، عالم وخاتم .

وأما ألف التفخيم فهي بين الألف وبين الواو نحو : (سَلَامُ عليك)، وعلى هذا كتبوا (الصلوة) بالواو. لأنّ الألف مالت نحو الواو، وأمّا الشين التي كالجيم فهي الشين التي يقلّ تفشّيها واستطالتها وتتراجع متصعّدة نحو الجيم، وأمّا الصاد التي كالزاي فهي التي يقلّ همسها قليلا، ويحدث فيها ضرب من الجهر لمضارعتها الزاي نحو (يصدر، يزدر) (ابن جني، ١٩٥٤ : ٥٨/١-٥٩).

فالعلماء العرب سمعوا أصواتا تحمل نغمة صوتية ليست طبق الأصل للنغمة الصوتية للأصوات الأصول، وحاولوا التقريب بينها من خلال الرمز، فعمدوا إلى وصف ذلك وصفا تقريبا مثل قولهم : همزة بين بين، والألف الممالة، وألف التفخيم وغير ذلك.

وبذلك تكون الأصوات المسموعة عن العرب بالإضافة إلى التسعة والعشرين صوتاً الأصول (٣٥) صوتاً، والستة الأصوات المضافة وصفها العكبري وغيره بالفروع المستحسنة، لجواز القراءة بها في القرآن الكريم والشعر وغير ذلك.

يقابل ذلك سبعة أصوات أخرى تضاف لمجموع ما تقدم فيصير العدد الكلي (٤٢) صوتاً، ولكن العكبري وصف الأصوات السبعة المضافة بالأحرف المستقبحة، فلا يقرأ بها البتة إلا مضطراً، ووصف مخارجها بأنها تكون بين مخرجها الأصلي وبين الصوت الذي يقاربه، ولا يوجد رمز صوتي لها، وإنما تسمع بالمشافهة، وكل ما وصفه العلماء العرب هو محاولة التقريب بينها وبين الأصوات الأصول، وفي هذه الأصوات السبعة يقول العكبري : (ولهم سبعة آخر مستقبحة وهي :

- ١- الكاف التي تقرب من الجيم .
 - ٢- والجيم التي تقرب من الكاف والجيم التي تقرب من الشين .
 - ٣- والضاد الضعيفة التي تقرب من الذال .
 - ٤- والصاد التي تقرب من السين .
 - ٥- والطاء التي تقرب من التاء .
 - ٦- والظاء التي تقرب من الثاء .
 - ٧- والباء التي تقرب من الفاء .
- ومخرج كل حرف منها بين مخرج أصلها الصحيح وبين الحرف الذي يقاربه ولا يقرأ بها البتة إلا مضطراً) (العكبري، د.ت : ٥٣٠-٥٣١).

ويظهر مما تقدم أن العكبري لم يُمثل لهذه الأصوات ولكن غيره (ابن سينا، ١٩٨٣ : ١٢٠) مثل لها، فالكاف التي تقرب من الجيم من نحو : (كمل) تنطق (جمل). والجيم التي تقرب من الكاف كلمة (رجل) تصبح (ركل)، والجيم التي كالشين كلفظة (اجتمعوا) التي تصبح (اشتمعوا)، أما الضاد الضعيفة نحو كلمة (أثر)

التي هي (أضر)، والصاد التي كالسين مثل (صابر) تصبح (سابر)، والطاء التي كالتاء نحو (طال) تصبح (تال). والطاء التي كالتاء نحو كلمة (ظالم) تصبح إلى (ثالم). والباء التي كالفاء نحو (بالوزج) تصبح (فالودج) والباء التي يعنيها هي الباء الفارسية وهي باء مهموسة مثل صوت (p) في اللغات الأجنبية، والعرب كانوا يعرّبون هذه الباء بقلبها فاء.

فأصوات أي لغة من اللغات لها تنويعاتها الخاصة، وإن ما نسميه صوتا واحدا قد يتردد هو نفسه في كلمة من الكلمات أكثر من مرة، ولكنه لا ينطق بالصورة نفسها في كل مرة، مثال ذلك النونات في العربية، فلا تعارض، أو لا تقابل بينها، لأننا لا نستطيع تغيير المعنى بإحلال إحداها محل سواها (الحمد، ٢٠٠٢ : ٨٦).

ومثل ذلك تقابل السين والصاد في العربية في الترقيق والتفخيم، وكلاهما يصلح أن يكون تنوعاً فونيمياً كما في كلمة (صراط وسراط).

والكتابة وسيلة ناقصة لتسجيل أصوات اللغة، فقد قامت الأبجديات على أساس الرمز، لكل فونيم رمز كتابي معين يدل على جميع أفراد عائلة هذا الفونيم، ولم تخصص الأبجديات رموزاً معينة لفروع الفونيمات المتعددة .

ويبدو أن العكبري عندما لم يضع رموزاً وأشكالاً للأصوات الفروع سببه اعتماده الأصول التي بنيت، ونظمت ألفاظ العربية عليها، وإنّ الفروع ما هي إلّا عادات نطقية توزعت بين لهجات عربية متعددة، وقد يكون بعضها عبارة عن تأثير لفظي، بسبب احتكاك العرب بغيرهم، ولا سيما تلك الأصوات التي وصفها بالمستقبحة التي لا يجوز قراءة القرآن الكريم بها، حتى أنه لم يعط لها أمثلة تقريبية توضّح المراد منها، وعلى الرغم من أنه حاول أن يقربّ مخارج أصوات الفروع من الأصول، أي بين مخرج أصلها الصحيح وبين الصوت الذي يقاربه، فإنه اقتصر على وصف مخارج الأصوات الأصول التي حددها بتسعة وعشرين صوتاً.

وليس غريبا على العكبري أن يضع رموزا للأصوات الفروع، وذلك لأننا لا نستطيع إحصاء الأصوات في لغة ما، بعد الحروف الموجودة في أبجديتها، فكل لغة فيها من الأصوات أكثر مما في كتابتها من العلامات (السعران، ١٩٦٢: ٦٢).

مخارج الأصوات

عرّف العكبري المخرج بقوله : ((إعلم أن مخرج كل حرف ما ينقطع الحرف عنده من الحلق واللفم والشفيتين) (العكبري ، د.ت : ٥٣٠).

ومن خلال هذا التفريق يشير العكبري إلى أن مخرج الصوت هو انقطاع النفس عند موضع معين، وعندما ينقطع النفس أو الهواء في نقطة ما، تسمى هذه النقطة مخرجا سواء أكانت عند الحلق واللفم والشفيتين أم أي موضع من مواضع جهاز النطق، فالمخرج هو المكان الذي تعترض فيه آلة النطق، مجرى النفس فتعترض طريق مروره، إما أن يكون الاعتراض تاما للمجرى فيصاحبه قفل تام، يعقبه انفراج، أو تضيق ينتج عن تقارب عضوين من أعضاء آلة النطق، ومن هنا اطلق العلماء على موضع القفل أو التضيق مخرج الصوت (أبن جني، ١٩٥٤: ٧/١) (الداني، ١٩٨٧: ١٠٢) ، ولم يكتف العكبري بتعريف المخرج، وإنما أعطى طريقة لاختيار ذلك فقال: (واذا أردت أن تختبر ذلك فزد على الحرف الذي تريد معرفة مخرجه همزة الوصل المكسورة، ثم انطق به ساكناً، فعند ذلك تجد جرس الحرف متقطعاً هناك، فثمّ مخرجه نحو: (إغ إف إص إم)، ومن هنا لم يكن للألف مخرج، لأنّ صوتها لا ينقطع عند جزء مما ذكرنا، بل هي نفس مستطيل بحيث يمكن مده من غير حصر) (العكبري، د.ت : ٥٣٠).

وطريقة تذوّق جرس الأصوات منهج أول من اتبعه هو الخليل بن احمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) في كتابه العين، عندما تحدّث عن مخارج الأصوات فقد تذوّق الأصوات، فينقل عنه تلميذه الليث بن المظفر (ت ١٩٠هـ) ما نصّه : (إنّه كان يفتح

فاه بالألف ثم يظهر الحرف نحو : أب، أت، أح، أع، أغ، فوجد العين أدخل الحروف في الحلق فجعلها أول الكتاب) (الفراهيدي، ١٩٨٠ : ٥٣/١).

وقد ذهب بعض المحدثين إلى أنّ ذلك يعد تجربة للنطق بالصوت ساكنا لئلا يختلط بغيره، ويلتبس على الناطق معرفة كيفية صدوره ومخرجه الدقيق (عبد التواب، ١٩٩٧ : ١٥) ، وهذا كلام غير دقيق من الناحية الصوتية، لأن النطق سيكون بصوتين اثنين لا بصوت واحد، فالهمزة صوت قائم بذاته، وكذلك العين، أو الحاء، أو الباء، ونطقهما معا سيؤدي إلى اختلاط صفات الصوتين، تأثير أحدهما بالآخر، والدرس الصوتي الحديث ينطق الصوت لوحده لمعرفة خصائصه من دون الاستعانة بهمزة وصل، فينطق الباء، والتاء، والعين وغيرها على النحو الآتي : (ب، ت، ع).

ويبدو أنّ سبب الحاق همزة الوصل عند نطق الأصوات عند العلماء العرب الأوائل كان هدفه تعليميا لتقريب نطق الأصوات كما يفعل بعضهم عند نطق صوت (ب) مثلا، فيقول : (باء)، ومثله (تاء)، و(خاء)، والنطق الأخير نطقا يستلزم أكثر من صوت، وكأنه عبارة عن لفظة قائمة بذاتها، والغرض منه تقريب النطق بدلالة أنه عند كتابة الأصوات ترتيبيا تكتب مجردة من كل شيء على النحو الآتي : (أ، ب، ت، ث، ج،).

ومهما يكن من أمر، فعدد مخارج الأصوات عند سيبويه ستة عشر مخرجا (سيبويه ، د.ت : ٤٠٥/٢) ، بالتحديد والتفسير الذي سار عليه العكبري وعند الخليل احد عشر مخرجا (الفراهيدي، ١٩٨٠ : ٥٧/١).

وذهب بعض علماء العربية إلى جعلها أربعة عشر مخرجا، فقال الداني (ت٤٤٤هـ) (وزعم الفراء وقطرب والجرمي وابن كيسان أنّ مخارج الحروف أربعة عشر مخرجا فجعلوا (اللام) والراء والنون من مخرج واحد وهو طرف اللسان

وجعلهن سيبويه من ثلاثة مخارج) (الداني، ١٩٨٧: ١٠٤). وكذلك جعلهن العكبري في ثلاثة مخارج متابعا سيبويه.

ويظهر من النص الذي أورده الداني أنّ الاختلاف في عدد المخارج بين علماء العربية يعود إلى الإجمال والتفصيل، فبعضهم يجمع أكثر من صوت في مخرج واحد بالاستناد إلى توسيع المخارج، أو جمع أصوات في ما يسمى بمجموعة المخارج الكبرى، وبعضهم يفصل في ذلك بنسبة كل صوت إلى مخرجه ضمن اطار مجموعة صغرى أو كبرى من المخارج .

ومثل هذا الاختلاف موجود عند علماء الدرس الصوتي الحديث، فبعضهم يجعلها عشرة، وبعضهم الآخر جعلها تسعة، وغيرهم يجعلها أحد عشر مخرجا. وكل فريق يستند إلى أسس ومعايير صوتية يتوسع فيها في عدد المخارج ويختصرها في ضوء تدرجها في جهاز النطق ووصفها (السعران، ١٩٦٢: ١٩٩) (بشر، ١٩٧٥: ١١٨).

وبالرغم من تعدد مخارج الأصوات عند علماء العرب القدماء، فإنّ العكبري اختار الاتجاه العام في عددها ووصفها وهي ستة عشر مخرجا، مفصلاً فيها متابعا سيبويه ومقتفيا أثره، فكان وصفه لمخارج الأصوات متدرجاً ومتسلسلاً في جهاز النطق، بادئاً من أقصى الحلق ومنتهيا بالشفيتين كما سنبينّه في محله من البحث .

مخارج الأصوات

مخارج الأصوات عند العكبري ستة عشر مخرجا جاءت على الوصف الذي حدّده عندما أفرد فصلا في عدد مخارج الأصوات فقال : (وهي ستة عشر ثلاثة في الحلق:

١- فأقصاها وأقربها من الصدر مخرج الهمزة والألف والهاء.

٢- وأوسطها من الحلق مخرج العين والحاء .

٣- وأدناها إلى الفم مخرج الغين والحاء (العكبري ، د.ت : ٥٣٢) (سيبويه ، د. ت : ٤٠٥/٢).

وبعد ذلك أخذ بتعداد المخارج إضافة إلى ما تقدم ، وهي (العكبري ، د.ت : ٥٣٢) (سيبويه ، د. ت : ٤٠٥/٢) :

- ١- أقصى اللسان وما فوقه من الحنك مخرج القاف.
- ٢- دون مخرج القاف وما يليه من الحنك مخرج الكاف.
- ٣- من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك مخرج الجيم والشين والياء.
- ٤- ما بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس الضاد، فإن شئت أخرجتها من الجانب الأيسر، وإن شئت من الأيمن.
- ٥- ما بين أول حافة اللسان ومن أدناها إلى منتهى طرف اللسان ما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى ومما فويق الضاحك والنايب والرباعية والثنية مخرج اللام.
- ٦- النون وهي من طرف اللسان بينها وما بين ما فوق الثنايا .
- ٧- ومن مخرج النون غير إنها أدخل في ظهر اللسان قليلا لانحرافه إلى اللام مخرج الراء.
- ٨- مما بين طرف اللسان وأصول الثنايا مخرج الطاء والذال والتاء.
- ٩- مما بين طرف اللسان وفويق الثنايا مخرج الزاي والسين والصاد.
- ١٠- مما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا مخرج الظاء والتاء والذال.
- ١١- من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا مخرج الفاء .
- ١٢- مما بين الشفتين الباء والميم والواو.
- ١٣- من الخياشيم مخرج النون الخفيفة .

خضعت طريقة وصف الأصوات مخرجياً عند العكبري إلى تباين في التفصيل والإجمال، والجمع والإفراد، فهو يجمع أكثر من صوت في وصف واحد؛ لأنها تخرج من مخرج واحد مثل (الباء والميم والواو)، وقد يفرد لبعض الأصوات وصفاً واحداً؛ لأنها إنفردت به، لكونها تخرج من مخرج واحد خاص بها كما في (الضاد واللام والنون)، وهو منهج سار عليه من سبقه من القدماء (سيبويه، د.ت : ٤٠٥) ، الذين اتفقوا على وصف متقارب لمخارج الأصوات في الألفاظ والمصطلحات (أبن جني، ١٩٥٤ : ٥٣).

التمعن في الوصف العام لمخارج الأصوات كما هي عند العكبري، يمكن فهم ذلك على مستويين، أولهما المستوى بقراءة وصفه بأنه سائر على طريقة ومنهج من سبقه، مستعيراً عباراتهم وألفاظهم ومصطلحاتهم، فيكون بذلك مقلداً غير مبتدع، وهذا في حقيقته لا يعطي للرجل حقه في الخوض في هذا المجال. وثانيهما هو المستوى الوصفي الدقيق والخاص به، بحيث يغدو وصفه معطى ومدركا يتم التركيز من خلاله على العلاقة الرابطة بين الأصوات وجهازها النطقي، فيكون بذلك تأصيلاً معرفياً لمقولات سابقة ولاحقة، تتطوي عليها مفاهيم منهجية وعمليات إجرائية تتبع المصطلحات وتجمع تفرعاتها، من خلال عملية النطق التي تبدأ بالصوت وتنتهي بوصفه مخرجياً.

فمخارج الأصوات عملية وصفية لأداء الصوت، وتحويل المنطوق إلى وصف مخرجي يشير إليه ويجعله لصيقاً به.

ولو أخذنا وصف العكبري لمخارج الأصوات وقابلناه مع الوصف الحديث، لوجدنا ثمة اختلافاً في وصف بعض هذه الأصوات مخرجياً، فالمخارج الثلاثة والتي عدّها من الحلق بترتيب أقصى الحلق ويخرج منها (الهمزة والألف والهاء)، وأوسط الحلق ويخرج منها (العين والحاء)، وأدنى الحلق ويخرج منها (الغين والحاء)، ففيه

بعض الخلط والتعميم . فأقصى الحلق في الوصف الحديث يكون لمخرج صوت واحد وهو (الهمزة)، فوصفت الهمزة بأنها حنجرية، ويضاف إليها (الهاء)؛ لأنه من أقصى الحلق - أيضاً - بمعنى من أبعد نقطة مخرجية وهي (الحنجرة)، أما (الألف) فهو صوت صائت، وليس صوتاً صامتاً، ووصفه للـ (الحاء والعين) بأنهما حلقيان يطابق الوصف الحديث، فهما يخرجان من جذر اللسان مع الجدار الخلفي للبلعوم (مصلوح، ١٩٨٠ : ٧٠).

أما مخرج (الغين والحاء) فهما عنده من ادنى الفم، أو أدنى الحلق، في حين إنهما في الوصف الحديث من أقصى الحنك الأعلى وتوصف بأنها (أصوات حنكية قصية)، وتضاف إليها (الكاف) (السعران، ١٩٦٢ : ١٨٢) . أو تسمى بالطبقية، وذلك باتصال مؤخرة اللسان بالطبق أو الحنك اللين (عمر، ١٩٨٥ : ٣٧).

فإذا كانت (الكاف) قد وصفت عند المحدثين بالطبقية أو الأقصى حنكية، فإنها وصفت الوصف عينه عند العكبري، بأنها من أقصى اللسان وما يليه من الحنك، ولكنها أقرب من (القاف)، لأن القاف عنده من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك.

وهي توصف حديثاً باللهوية، لأنها تخرج من اللهاة برفع مؤخرة اللسان مع اللهاة فيتصلان اتصالاً تاماً مع غلق تجويف الأنف (السعران، ١٩٦٢ : ١٨٢) (حسان، ١٩٧٩ : ١٠٣).

ونجد عنده توزع الأصوات (الجيم والشين والياء) بين وسط اللسان وبين وسط الحنك، وهو كذلك عند المحدثين فتوصف بالأصوات الغارية فيرتفع مقدم اللسان تجاه الحنك الصلب أو الغار مع غلق تجويف الأنف (عمر، ١٩٨٥ : ٣١٧) (الخوالي، ١٩٩٠ : ١٠٣).

ويلاحظ على العكبري وغيره من العلماء أنهم أخذوا وصف سيبويه فيما يخص (الضاد) بعباراته وألفاظه على الرغم من البعد الزمني بينهم وبين النطق الذي وصفه

سيبويه لهذا الصوت، ويبدو أنهم ينقلون وصف الضاد القديمة التي لم توجد في عصر سيبويه، وإنما تنطق بتكلف، لذلك وصف (الضاد) عنده تخرج من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس، وهي في الوصف الحديث بحسب النطق الفصيح تنطق بالتقاء مقدمة اللسان باللثة والأسنان العليا التقاء تاما بحيث يمنع مرور الهواء، مع ارتفاع مؤخرة اللسان تجاه الحنك اللين، أو الطبقة ثم انخفاض مقدمة اللسان، فهي من الأصوات الأسنان اللثوية إلى جانب أصوات أخرى (كالدال والتاء والطاء والزاي والسين والصاد) (مصلوح ، ١٩٨٠ : ١٨٨).

وقد أصاب بوصف (النون) بعدّها من طرف اللسان، لأنها تخرج من طرف اللسان حينما يتصل باللثة، لكي يسمح بمرور الهواء من تجاويف الأنف، ومثل ذلك وصفه (للراء) بأنه من ظهر اللسان قليلا، والوصف الحديث يؤكد ذلك من خلال نطقه باتصال طرف اللسان باللثة، فيسمى لثويا (عمر، ١٩٨٥ : ١٨٢).

واتفق وصف (الطاء والدال والتاء) عند العكبري وعند المحدثين، فقد وصفها بأنها تخرج من بين طرف اللسان وأصول الثنايا، في حين إنها تخرج من المخرج نفسه عند المحدثين، بالإضافة إلى أصوات أخرى، وتسمى بالأصوات الأسنان اللثوية (عمر ، ١٩٨٥ : ٣١٦).

ومثل ذلك وصفه الأصوات (الزاي والسين والصاد والطاء والتاء والذال) بأنها تخرج من بين طرف اللسان وفوق الثنايا أو أطراف الثنايا، وهي عند المحدثين تخرج من الأسنان واللثة من طرف اللسان (عمر ، ١٩٨٥ : ٣١٦).

أمّا (الفاء) فقد كان وصفه دقيقا ولم يزد عليه المحدثون، فهي من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا، فهي أسنانية شفوية.

ومثل ذلك وصفه (للباء والميم والواو) بأنها تخرج من بين الشفتين وهذا موضع اتفاق قديما وحديث (عمر ، ١٩٨٥ : ٤٦-٥٦).

أما (النون) فقد وصفها بأنها تخرج من الخياشيم، وهي بالوصف الحديث تسمى بالصوت اللثوي، لأنها تخرج من اتصال طرف اللسان وحده أو أصول الأسنان لكي يسمح هذا الانخفاض بمرور الهواء من تجاويف الأنف ليكون الصوت أنفياً (الخولي، ١٩٩٠: ١٨).

إن وصف مخارج الأصوات عند العكبري أخذ منحى تطابقياً مع الوصف الحديث، إلّا في بعض المخارج لأصوات قد تغيّر نطقها، (كالضاد) أو لأصوات اشتبه عليه مخرجها، لأن نطقها يوحي بذلك كـ (الألف) التي لا مخرج لها بوصفهم، لأنها هواء، كما يلاحظ أن العكبري أعطى لكل صوت مخرجه، ثم عمد إلى جمع أكثر من صوت في مخرج واحد، وهذا ما ذهب إليه المحدثون مع أنهم خالفوه في إفراد بعض الأصوات، وإعطاء كل صوت وصفاً مخرجياً خاصاً به، في حين نجدهم يجمعون عدداً من الأصوات في وصف مخرجي واحد. وكما دأب العلماء العرب القدامى على جعل الحلق منطقة أوسع مما يذهب إليه المحدثون، فقد قسم العكبري الحلق إلى ثلاث مناطق (أقصى الحلق، وسط الحلق، أدنى الحلق) ولم يعطه تعريفاً واضحاً، في حين إنّ ما يسمى بالحلق، هو النقاء أقصى اللسان بأقصى سقف الفم (أنيس، ١٩٧١: ٦٣). وهناك من يسميه البلعوم، ويطلق عليه تسميات متعددة بحسب تعدد أجزاء الجهاز النطقي للإنسان، فيصنّفه إلى البلعوم الحنجري، والبلعوم الفموي، والبلعوم الأنفي (أيوب، ١٩٦٣: ١٠١).

وبغض النظر عن ذلك، فإذا كان مفهوم الاصطلاح وهو (الحلق) يقصدون به مما نقصده اليوم، فقد جانبهم الصواب في ذلك بحسب ما تقدم من تحديد منطقة الحلق، أما إذا كانوا يقصدون به منطقة أوسع من ذلك بحيث يشمل مؤخر اللسان والطبق فيجوز أن تضم المنطقة الأصوات التي أدرجها العلماء العرب في هذا الموضع (حسان، ١٩٧٩: ١٩).

وقد يكون للتقارب والتداخل بين مخارج النطق أثر في ذلك، فليس هناك حدود فاصلة تفصل نطقيا بين بعض هذه المخارج، وعلى أثر ذلك يمكن أن تنسب مجموعة من الأصوات إلى مخرج معين أوسع أو أي مخرج قريب منه، أو متداخل معه (أنيس، ١٩٧١: ١٩).

كما أنه حتى لو كان هناك اختلاف في وصف بعض مخارج الأصوات وهي قليلة جدا - كما ظهر - فيمكن حمل ذلك على التغير الذي طرأ على نطق بعض من هذه الأصوات، وإذا سلّمنا بذلك التغير، فإنه ليس غريباً أن يختلف الوصف بين القدماء والمحدثين، وأوضح مثال على ذلك مخرج (الضاد) فهو قديماً يخرج من حافة اللسان، في حين إن نطقه حالياً يكون من مخرج (التاء والطاء والذال) فهو أسناني لثوي.

والاختلاف الترتيبي للمخارج تبعاً للتفصيل والإجمال حاصل، فالكبري ومن سبقه من العلماء يجعلون (اللام والنون والراء) في ثلاثة مخارج منفصلة، في حين إنها عند المحدثين من مخرج واحد .

غير أننا نجد الخليل بن أحمد الفراهيدي يجعلها في مخرج واحد، فعند هذه الأصوات الثلاثة من حيز واحد (الفراهيدي، ١٩٨٠: ٥٨/١)، وسأيره بعض العلماء (الداني، ١٩٨٧: ١٠٤) (الجزري، د.ت: ١٩٨/١).

كما أنه جعل للنون مخرجا، ثم عاد وجعل لها مخرجا آخر تحت عنوان النون الخفيفة، وجعل الأولى من طرف اللسان، والثانية من الخياشيم، وبعض العلماء العرب يسقط مخرج النون الخفيفة عندما يسرد مخارج الأصوات العربية ويكتفي بالنون الأصلية (الطحان، ١٩٨٤: ٧٩).

والاكتفاء بمخرج النون الأصلية أولى من إيراد مخرج للنون الفرعية التي أطلق عليها (النون الخفيفة)، لأنها فرع من الأصلية، وللتعاملات الصوتية أثر كبير

في وصفها، فهي تكون بهذا الوصف نتيجة لتعاملياتها، وإلا فللعربية نون واحدة في أبجديتها الصوتية، يضاف إلى ذلك اختلاف في الترتيب الصوتي بحسب التدرج النطقي للأصوات الذي يرتب مخارج الأصوات على وفق أبعادها النطقية، فالعكبري وعلماء العربية رتبوا ما اطلقوا عليه أصوات أقصى اللسان والحلق على النحو الآتي: (الهمزة، الهاء - العين والحاء - الغين والخاء والقاف والكاف).

في حين إنّ علماء الأصوات المحدثين رتبوها على النحو الآتي : (الهمزة والهاء - العين والحاء - النون - الغين والخاء والكاف)، وذلك لأسباب منهجية علمية تستند إلى تجارب المعامل الصوتية الحديثة (حسان، ١٩٧٩ : ٨٤).

ويبدو أنّ النسق الصوتي العام واحد من خلال جمعها في مجموعة صوتية كبرى، ويبقى تذوق الأصوات له أثر واضح في وضع كل صوت في مدرجه الصوتي، لا سيما أن العلماء العرب استندوا إلى الملاحظة والتذوق في وصف الأصوات، ولم يمتلكوا معامل صوتية، ولا مختبرات علمية لمعرفة مخارج الأصوات وصفاتها، ومع ذلك كله وصلوا إلى درجة ليس من البعيد أن نقول: إنها طابقت ما وصل إليه البحث الصوتي الحديث.

وما يصدق على تلك الأصوات يصدق على أصوات نطق اللسان التي رتبها العكبري ومن سبقه على النحو الآتي (اللام - النون - الراء - الطاء - والذال والتاء - السين والصاد والزاي - الذال والشين والطاء) في حين إنها عند المحدثين لم تكن بهذا النسق الترتيبي، إذ جعل بعضهم أصوات (اللام والراء والنون - الطاء والذال والتاء والضاد - السين والصاد والزاي) من مخرج واحد وهو اللثة (مصلوح ، ١٩٨٠ : ٢٠١). وجعل بعضهم الأصوات الأخرى أسنانية لثوية ما عدا (اللام والراء والنون) التي جعلها لثوية (عبد التواب ، ١٩٩٧ : ٣١). ويقدم بعضهم (السين والصاد

والزاي) على (الطاء والذال والتاء والضاد) وعنده الأولى من اللثة، والثانية من أصول الأسنان(السعران ، ١٩٦٢ : ١٩١).

وهذا في نطاق الوصف العام لا يؤثر في الوصف المجمل الذي أطلقه العكبري على مجموع هذه الأصوات، بغض النظر إلى أفرادها، أو جمعها، أو تقديم بعضها، أو تأخيرها، لأنه بيّن بأن مخرج هذه الأصوات بين طرف اللسان والثنايا، مما يدل على استتعاره بتقارب مخارج هذه الأصوات، وعدم وجود فوارق دقيقة بينهما مراعاة للنطق المعاصر له، أو ترتيب ذلك من طريق القراءات القرآنية، وعلى الرغم من أن وصفه للأصوات وترتيبه لصفاتها سيتضح فيه خلاف واضح وجوهري كما سيأتي في موضعه من البحث - إن شاء الله تعالى - فإنّ ذلك لا يمنع من أنه طابق المحدثين في وصفهم لمخارج الأصوات، أو اقترب منهم في تلك التي اختلف وصف المخرج لها كالضاد .

صفات الأصوات

لصفة الصوت أثر كبير في تحديد ملامحه الصوتية، وعلى الرغم من أن الصفة كما يراها القدامى كيفية عارضة للصوت عند حصوله في المخرج (نصر، ١٣٤٩هـ : ٤٣). فإنّ تلك الكيفية تعطي للصوت ميزة من باقي الأصوات الأخرى، ومثلما أن بعض الأصوات تشترك في مخرج واحد، فكذلك تشترك في الصفة، نتيجة للعملية النطقية التي تسهم في إداء النغمة الصوتية المميزة لكل صوت .

١- الأصوات المجهورة والأصوات المهموسة ...

الأصوات المجهورة عند العكبري تسعة عشر صوتاً هي : (الهزمة، والألف، والعين، والغين، والقاف، والجيم، والياء، والضاد، واللام، والزاي، والراء، والطاء، والذال، والنون، والظاء، والذال، والباء، والميم، والواو) (العكبري ، د.ت : ٥٣٠).

وسمّيت مجهورة (لأنها أُشبع الاعتماد في موضعها ومُنِع النفس أن يجري معها حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت) (العكبري ، د.ت : ٥٣٠).

ويقابل المجهورة عنده الأصوات المهموسة، أو هي بقية الأصوات التسعة والعشرين وسمّيت بذلك (لأن الهمس صوت خفي، وهذه كذلك لأن اعتمادها ضَعْف حتى جرى معه النفس) (العكبري ، د.ت : ٥٣٠).

يلاحظ على تقسيم العكبري للأصوات أنه استند إلى جري النفس، وعدم جريه في إعطاء صفة الجهر أو الهمس، فالذي يمنع معه النفس من الجريان يُعدُّ صوتاً مجهوراً، والذي يجري معه النفس يُعدُّ صوتاً مهموساً، لأن الأول أُشبع الاعتماد في موضعه، والثاني ضَعْف الاعتماد عليه، بمعنى قوة الضغط أدى إلى تشكيل عقبة تمنع النفس (الهواء) من الجريان، ومتى ما ضعفت سمحت للهواء بالجريان، وهو يكاد يقرب من تفسير المحدثين لعملية الجهر والهمس، فتحدث العملية بالاستناد إلى الوترين الصوتيين، فإذا تضام الوتران الصوتيان يؤدي ذلك إلى ضغط الهواء يعقبه فتحهما، ثم انطباقهما بسرعة كبيرة فيهتز الوتران الصوتيان، فيصاحب الهواء الخارج نغمة صوتية واضحة يطلق عليها الصوت المجهور .

في حين إن الصوت الذي لا يتحرك معه الوتران الصوتيان عند نطقه يسمى مهموساً (السعران ، ١٩٦٢ : ١٤٥) (عمر ، ١٩٨٥ : ١٠٦).

وبناءً على ذلك تكون الأصوات العربية المجهورة بحسب الوصف الحديث هي: (العين، والغين، والجيم، والياء، واللام، والراء، والنون، والدال، والضاد، والزاي، والذال، والطاء، والباء، والميم، والواو)، في حين الأصوات المهموسة هي (الهاء والحاء والحاء والقاف والكاف والشين والثاء والطاء والسين والصاد والفاء والتاء)، فيكون عدد المجهورة خمسة عشر صوتاً بإسقاط (الهمزة، والقاف، والطاء، والألف).

وليس تسعة عشر كما ذهب إلى ذلك العكبري، في حين عدد الأصوات المهموسة اثنا عشر صوتاً، وليس عشرة أصوات كما ذهب إلى ذلك العكبري. وعلى الرغم من أن صوت (الألف) صوت مجهور، فإنه يُعدُّ صوتاً صائتاً وليس صوتاً صامتاً، وتقسيم الأصوات إلى مجهورة ومهموسة خضعت له الأصوات الصامته أو الصحيحة، أما (الهمزة) فقد اختلف العلماء المحدثون في وصفها، فذهب بعضهم إلى أنها صوت مهموس لعدم اهتزاز الوترين الصوتيين معها، في حين ذهب بعضهم الآخر إلى أنها لا مجهورة ولا مهموسة، لاختلاف وضع الجهر والهمس عن وضع الوترين الصوتيين حال النطق بها (أنيس، ١٩٧١: ٢٠).

أما صوت (الطاء) فهو مهموس بالنطق المعاصر، وقد ذهب المحدثون في التماس العلة في عدّه مجهوراً لدى القدامى، بأن تطوراً حدث في نطق الصوت، وإنهم وصفوا صوتاً يشبه صوت (الطاء) وهو صوت (الطاء) المشهوبة بالتهميز أو انهم وصفوه بالجهر بناء على فهمهم للمجهور والمهموس من جري النفس وعدمه، وليس من الصحيح انتقادهم على وفق المصطلحات الحديثة (بشر، ١٩٧٥: ١٣٠-١٣١) (النعيمي، أصوات العربية بين التحول والثبات، د. ت: ٢٧-٢٨).

ويذهب بعض المحدثين إلى أن (الطاء) القديمة كانت مجهورة، وأنها فقدت صفة الجهر في وقت ما، فألت إلى (الطاء) المهموسة التي تُنطق اليوم (الحمد، ٢٠٠٢: ٢٩٥).

وعلى الرغم من أنه لم يحدد الزمن الذي فقدت فيه (الطاء) صفة الجهر، فإن ذلك يحمل على التغيير الذي لحق (الطاء) بتقدم الزمن، ولا يمنع ذلك إجماع القراء أو المجودين اليوم على نطق (الطاء) مهموسة، فمعالم التغيير أو الانحراف في الصفة أو النغمة الصوتية يجوز بتغيير المجتمعات، وتعاقب الأجيال، وتقدم المدنية،

ونحن لا نذهب إلى احتمال تخطئة العكبري ومن سبقه في وصف (الطاء)، وإنما احتمال حدوث تغيير وتطور صوتي لحق (الطاء) في بعض خصائصه.

ولكن الغريب في الأمر أن العكبري عندما ذكر الأصوات المجهورة وضع معها صوت (الطاء)، غير أننا نجده يصف (الطاء) بالهمس في موضع آخر عند حديثه عن الأصوات التي تجتمع فيها مجموعة من الصفات، وهو الوصف الشامل الذي سنتحدث عنه في موضعه من البحث - إن شاء الله تعالى - .

فيقول في (الطاء) (حرف مهموس متسفل رخو منفتح) (العكبري ، د.ت : ٥٣٥). ووجه الغرابة، لأنه وصفها بالجهر في موضع، ووصفها بالهمس في موضع آخر، فضلاً عن أنه أول عالم عربي يصفها بالهمس، ويبدو إن سبب ذلك يعود لأمرين، إما أنه أخطأ ونسي ذلك ولم يلتفت إلى أنه وصفها بالجهر، وإما إنه كان قاصداً ذلك، وإن تدوَّقَه لها جعله يصفها بالهمس، أما وصفه الأول لها بالجهر، فذلك لأنه نقل ذلك عن سيبويه بما ورد فيها من صفات، حتى لو كانت لديه ملاحظات على بعض الأصوات، بدلالة أنه عقد فصلاً كاملاً تحدث فيه عن صفات الأصوات كاملة، وعلى الطريقة التي يسير عليها المحدثون، فإذا كان عارفاً بهذا الوصف وقاصداً الهمس، فإنه يعد نقلة نوعية في الدرس الصوتي عند العرب، وإنه لم يكن مقلداً، وإنما متدوِّقاً للأصوات، في الأقل عندما شرع هو بترتيب صفاتها بحسب تدوِّقه لها. ولو كان فصل في ذلك، وأعطى العلة التي وصفها مرة بالجهر وأخرى بالهمس لفتح باباً مهماً في تقدّم علم الأصوات عند العرب.

ومثله صوت (القاف)، فهو مهموس في النطق الفصيح المعاصر، وذهب بعض الباحثين إلى أنه ربما كان الوصف القصد منه مجهور الكاف وهو ما يسمى بالـجيم القاهرية، أو هو وصف قريب لصوت (الغين)، وهو نطق للقاف الذي يسمع في السودان وبعض أنحاء العراق وصفته الجهر (أنيس، ١٩٧١ : ٨٥-٨٦).

واحتمال وصف (القاف) بالجهر، لأن المقصود به (الكاف)، لا يسنده الدليل، بل بطلانه واضح، بدلالة أن العكبري ومن سبقه حددوا مخرج (القاف) وهو من نقطة أعمق من النقطة التي تخرج منها (الكاف).

ومثلما كانت هناك وقفة مع صوت (الطاء) للعكبري، كانت له وقفة مع صوت (القاف)، فهو عندما وصفها بالمجهورة لم يصفها كذلك في وصفه الشامل لصفات الأصوات، بل اكتفى بقوله (القاف حرف مستعل شديد منفتح) (العكبري ، د.ت : ٥٣٠).

فاسقط صفة الجهر عنها، ولا نعلم هل كان على دراية تامة في ذلك، أو أنه نسيها؟. أو أنه كان شاكا في صفتها عندما تذوقها ؟ في حين إنه كان متيقنا من (الطاء) فوصفها بالهمس . كل تلك الاحتمالات مرجحة، ما دام أنه لم يفصل ويعلل ما أقدم عليه، أمّا الصوت الآخر وهو (الهمزة) التي اختلف في صفتها، فقد وصفها بالمجهورة فقال : (حرف مجهور شديد مستعل منفتح) (العكبري ، د.ت : ٥٣٣).

وهي لا زالت موضع خلاف في صفتها بين القدامى والمحدثين، ومن مجموع تلك الأصوات الثلاثة التي هي محل خلاف بين المحدثين والقدامى، فإن الأخذ بما جاء به العكبري من خلال وصفه لصفات الأصوات الشاملة، فإنه لا خلاف مطلقا بينه وبين المحدثين في وصف الأصوات الثلاثة، إذا سلمنا جدلا بأنه كان متنبيا لوصف الهمس لصوت (الطاء) وسكوته عن صفة (القاف).

٢- الأصوات الشديدة والرخوة ...

علل العكبري سبب تسمية صنف من الأصوات بالشديدة بالقول : (سميت بذلك لقوتها وامتناع مد الصوت معها، وهي ثمانية : الهمزة، والقاف، والكاف، والجيم، والطاء، والتاء، والباء، والdal، ويجمعها أجدت طبقك) (العكبري ، د.ت : ٥٣٣).

أما الرخوة فقال : (وهي تسعة : الهاء، والحاء، والعين، والخاء، والشين، والطاء، والثاء، والذال، والفاء، وسميت بذلك لأنها خلاف الشديدة) (العكبري ، د.ت : ٥٣٣).

والأصوات الشديدة، أو ما تسمى بالانفجارية بالوصف المعاصر، تتكون نتيجة حبس النفس الخارج من الرئتين حبسا تاما في موضع ما من مواضع النطق، فيترتب على ذلك انحباس الهواء خلف ذلك الموضع، ثم يعقب ذلك انطلاق الهواء المضغوط بقوة محدثا صوتا انفجاريا. وبذلك تكون الأصوات التي تخرج بهذه الطريقة وتوصف بالانفجارية أو الشديدة بحسب النطق الفصيح المعاصر تسعة أصوات هي: (الهمزة، القاف، الكاف، الجيم، الدال، التاء، الضاد، الطاء والباء).

أما الرخوة أو ما تسمى بالاحتكاكية، فهي الأصوات التي تتكوّن من خلال تقارب شديد بين عضوين من أعضاء النطق، ينشأ عنه تضيق لمجرى الهواء الخارج من الرئتين وحدوث حفيف أو احتكاك مسموع، وبحسب النطق المعاصر فهي ثلاثة عشر صوتا (الفاء، والذال، والثاء، والطاء، والزاي، والسين، والصاد، والشين، والخاء، والغين، والعين، والحاء، والهاء)(عمر ، ١٩٨٥ : ٣٢١-٣٢٢).

ويلاحظ من ذلك أن العكبري لم يدرج (الضاد) مع الأصوات الشديدة، ولم يذكرها مع الأصوات الرخوة عند حديثه عن تعريف الأصوات الرخوة وبيان عددها، ولكنه في موضع آخر عندما يعطي وصفاً شاملاً للأصوات يقول في الضاد : (الضاد حرف مستطيل مجهور مستعل منطبق رخو) (العكبري ، د.ت : ٥٣٥).

فهو عنده صوت رخو، وليس شديداً، كما أنه ذكر (الجيم) مع الأصوات الشديدة وهي ليست كذلك عند المحدثين .

ويبدو أن (الضاد) التي وصفها العكبري ومن سبقه لم تعد موجودة في السنة الناطقين بالعربية الفصحى، وحلت محلها، إما (الطاء) كما ينطقها أهل العراق وبلدان

الجزيرة العربية، أو صوت (الـدال المطبقة) كما ينطقها أهل مصر وبلاد الشام (النعمي، أصوات العربية بين التحول والثبات : ٥٠).

وبناءً على ذلك أصبح نطق الضاد شديداً من مخرج (الطاء والـدال والتاء) وهو النطق الفصيح الذي يجري على ألسنة قراء القرآن الكريم (الحمد، ٢٠٠٢ : ٢٩٠)، فلا فرق بين (الضاد) و(الطاء) سوى أن الأول مجهور، والثاني مهموس، ولا فرق بين (الضاد) و(الـدال) سوى أن الضاد مطبق، والـدال لا إطباق فيه" (السعران ، ١٩٦٢ : ١٥٥).

في حين إن (الجيم) التي وصفها العكبري بالشديدة، وقال في وصفها الشامل (الجيم حرف مجهور شديد مستعل منفتح) (العكبري ، د. ت: ٥٣٥) . لم تعد كذلك في النطق الفصيح المعاصر، بل تطورت تطوراً كبيراً ومتشعباً أثر في صفتها، فهي تنطق الآن شديدة ليس فيها رخاوة، ومخرجها من أقصى الحنك كما هي عند المصريين، وبعض البدو ينطقون بالجيم مرحلة وسطى فيها شيء من شدة الـدال وشيء من التعطيش، كأنها تبدأ بدال وتنتهي بجيم، أما أهل الشام وبعض المغاربة فينطقونها كثيرة التعطيش وخالية من الشدة (أنيس، ١٩٧١ : ٧٦-٧٧).

وبناءً على ذلك النطق المتنوع للجيم العربية المعاصرة فهي ثلاثة أنواع (أنيس، ١٩٧١ : ٧٧):

- ١- شديدة خالصة الشدة (جيم مصرية).
 - ٢- مركبة من الشدة والرخاوة (الجيم الفصيحة).
 - ٣- رخوة خالصة الرخاوة (الجيم الشامية).
- ويلاحظ على العكبري أنه عندما يصف العين يقول : (فأما العين فبين الرخوة والشديدة تصل إلى التردد فيها لشبهها بالحاء) (العكبري ، د. ت: ٥٣٣).

فهي تحمل صفة الرخاوة وصفة الشدة، لذلك عندما وصفها وصفاً شاملاً قال :
(العين حرف مجهور شديد مستعل رخو منفتح) (العكبري ، د.ت : ٥٣٥).

وهو بذلك قد أثبت الصفتين لها. وهي رخوة في النطق المعاصر، وأقل رخاوة من (الغين)، فعند النطق بصوت (العين) يندفع الهواء ماراً بالحنجرة، فيحرك الوترين الصوتيين حتى إذا وصل إلى وسط الحلق ضاق المجرى قليلاً فأحدث صوتاً احتكاكياً (أنيس، ١٩٧١ : ٨٧).

٣- بين الشديدة والرخوة :

وهو مصطلح أطلقه العكبري على صوت العين فقال : (فأما العين فبين الرخوة والشديدة تصل إلى التردد فيها لشبهها بالحاء) (العكبري ، د.ت : ٥٣٣).
فالعين عنده تحمل صفة التوسط بين الشدة والرخاوة وغير محضة لإحدى الصفتين، وإنما تجمع بينهما، والتوسط هو خروج الصوت من دون انفجار أو احتكاك عند المخرج، واطلاق صفة التوسط على (العين) يكاد يكون غير دقيق، لأن النطق المعاصر يجعلها ضمن الأصوات الرخوة، لوجود احتكاك عند النطق بها (الحمد، المدخل إلى علم أصوات العربية، ٢٠٠٢ : ١١٠). وهي في ذلك تماثل (الحاء) كما يقول العكبري: ولكن في الرخاوة، والصفة المميزة بينهما هي الهمس، أو الجهر فـ (العين) تعد مجهورة، في حين إن (الحاء) مهموسة، وهو عندما يصف صوت (العين) بأنه بين الشديد والرخو يشبهه (الحاء)، فإنه يصفه في موضع آخر ويقول فيه : (العين حرف مجهور شديد متسفل رخو منفتح) (العكبري ، د.ت : ٥٣٥).

فيثبت الصفتين معا دلالة على ذلك الجمع بينهما، وهو عندما يصف (الحاء) يقول فيه : (الحاء حرف مهموس متسفل رخو منفتح) (العكبري ، د.ت : ٥٣٥).

فهو يشبه (العين) في الاستفال والانفتاح، وحتى الرخاوة، غير أنّ (العين) مجهور، وتضاف له صفة الشدة إلى جانب الرخاوة، ومهما يكن من أمر فـ (العين) في النطق المعاصر احتكاكية (رخوة) على غير ما ذهب إليه العكبري وغيره من العلماء القدامى.

ويبدو أنّ ضعف ما يسمع لصوت العين من حفيف جعله أقرب إلى الأصوات المتوسطة الأخرى وهي (الميم والنون واللام) (أنيس، ١٩٧١ : ٨٥). فوصفه القدامى بأنه بين الشدة والرخاوة.

٤-المطبقة والمنفتحة :

وصف اطلقه العكبري على أربعة أصوات فقط وهي (الصاد، والضاد، والطاء، والظاء) وقال في سبب تسميتها بذلك : (سميت بذلك لشدة التصاق ظهر اللسان بما يلائمه من أعلى الحنك) (العكبري ، د.ت : ٥٣٥) (سيبويه ، ١٣١٧هـ : ٤٠٦/٢). ويقابلها الأصوات المنفتحة وهي جميع الأصوات الأخرى وسميت بذلك (لأنّ موضعها لا ينطبق مع غيره ولا ينحصر الصوت معها كانهصاره مع المطبقة) (العكبري ، د.ت : ٥٣٤) (سيبويه ، ١٣١٧هـ : ٤٠٦/٢).

ويظهر من ذلك أنّ العكبري عدّ أصوات الإطباق أربعة في النطق المتقدم، غير إنه يضيف إليها أصواتاً أخرى في موضع آخر فيضيف لها (الثاء والميم والواو) (العكبري ، د.ت : ٥٣٦-٥٣٥) ، ولم يحدد السبب في تلك الإضافة، ولكن يمكن أن نتلمس ذلك من خلال إن الخليل وصف الميم بالمطبقة، لأنها تطبق الفم إذا نطق بها (الفراهيدي، ١٩٨٠ : ٥٨ / ١).

فيجوز في هذه الحالة إضافة الميم إلى الأصوات المطبقة التي يتخذ اللسان عند النطق بها شكلاً مقعراً، فيرتفع من طرفه و يصعد من أقصاه (بركة، د . ت : ١١٥)،

أو هي كما وصف القدامى (يصير الحنك كالطبق على اللسان) (الاستربادي، ١٣٥٨هـ : ٢٦٢ / ٣).

ووصف (الميم) بالمطبقة أيده درس الصوتي الحديث، لأن عند النطق بـ(الميم) يكون الحنك اللين أو الطبق منخفضاً قليلاً، بحيث يسمح لجزء من الهواء أن يمر عبر التجاويف الأنفية، ويسمى بالصامت الإنسدادي الأنفي، فتطبق الشفتان معه انطباقاً تاماً (بركة، د . ت : ١١٨)، وهذا الانطباق يكون - أيضاً - مع الواو فهي تنطبق تمام الانطباق (أنيس، ١٩٧١ : ٤٣).

أمّا إدراجه (الثاء) مع أصوات الإطباق فيبدو أنّ دخولها مع تلك الأصوات في المجموعة الصوتية الكبرى المتقاربة المخارج من حيث إن مخارجها تتحصر بين أول اللسان بما فيه طرفه، والثنايا العليا بما فيها أصولها يمكن أن يكون مسوغةً لذلك، لاسيما أنّه عند النطق بصوت (الثاء) يتخذ الهواء مجراه في الحلق والفم حتى يصل إلى مخرج الصوت، وهو بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا فيضيق هنا المجرى فيؤدي ذلك إلى سماع نوع من الحفيف أو الاحتكاك القوي (أنيس، ١٩٧١ : ٤٧-٤٨).

ويبدو أنّ هذه القوة تقترب من الإطباق، ولكنه ليس إطباقاً تاماً كما في (الميم)، وعلى الرغم من أن العكبري ذكر (الطاء) ضمن أصوات الإطباق الأربعة، فإنه في موضع آخر يذكر خصائصها الصوتية ويصفها بالمنفتحة فيقول : (حرف مهموس متسفل رخو منفتح) (العكبري ، د.ت : ٥٣٥). فهو فضلاً عن وصفه بالهمس وهو وصف يطابق الوصف الحديث، كما أشرنا إلى ذلك في الحديث عن الجهر والهمس، فإنه أعطى صفة الانفتاح له، وبالنظر إلى التجارب الحديثة فإنّ (الطاء) كما تنطق اليوم صوت مهموس ونظيرها غير المطبق هو (الثاء) والصوت المطبق الذي نظيره (الدال) هو (الضاد)، في حين إن وصف العكبري ومن سبقه من العلماء يذهب إلى

أن (الطاء) نظيرها غير المطبق هو (الدال)، أي إنَّ اللسان يكون مع (الطاء) مقعراً، ولا يكون كذلك مع (الدال) (العكبري ، د.ت : ٥٤١).

ولا نؤيد صحة وصفه، إذا كان قاصداً لذلك، لأن (الطاء) تغيّر نطقها، ففقدت صفة الجهر، وأصبحت مهموسة، ومن ثم فقدت صفة الإطباق (الحمد ، ٢٠٠٢ : ٢٩٤).

أو أنه أخطأ في وصف (الطاء) بالمنفتحة في الموضع الآخر، ووقع في السهو بدلالة أنه عندما يتحدث عن إدغام (الطاء) في (التاء) يثبت صفة الإطباق لـ(الطاء) فيقول : (تدغم الطاء في الدال ويبقى إطباق الطاء....) (العكبري ، د.ت : ٥٤١). وكلُّ ذلك يشير إلى أن أصوات الإطباق عنده هي أربعة (الصاد، والضاد، والطاء، والظاء) وهو يطابق الوصف الحديث لهذه الأصوات بأنها مطبقة (الحمد، المدخل إلى علم أصوات العربية، ٢٠٠٢ : ١١٦).

الاستعلاء والاستفال :

وصف العكبري أصوات (الخاء، والغين، والقاف، والصاد، والضاد، والطاء، والظاء) بالأصوات المستعلية عند حديثه عن الإمالة، فهذه الأصوات السبعة تمنع الإمالة فقال: (والعلة في ذلك أن الحرف المستعلي ينحى به إلى أعلى الفم والإمالة تحرف الحرف إلى مخرج الياء) (العكبري ، د.ت : ٥٢٧) (سيبويه ، ١٣١٧هـ : ١٢٨/٤).

وتحديد هذه الأصوات فقط بأنها متسعلية، يظهر إن ما عداها هي المستقلة وقد ذكر ذلك العكبري في موضع آخر عند وصفه الأصوات (العكبري ، د.ت : ٥٣٥). وقوله بأن الحرف المستعلي (ينحى به إلى أعلى الفم) يراد به إن اللسان يعلو عند النطق بهذه الأصوات إلى جهة الحنك، وهي كما يبدو تتوزع بين أصوات يعلو

اللسان بها وينطبق وهي (الصاد، والضاد، والطاء، والظاء)، وبين ثلاثة أصوات يعلو اللسان بها ولا ينطبق وهي: (الغين، والحاء، والقاف) وما عدا تلك تسمى المتسفلة، لأنّ اللسان لا يعلو بها إلى جهة الحنك (الداني، ١٩٨٧ : ١٠٦).

ووصف هذه الأصوات بالمستعلية يطابق الوصف الحديث، لأنّ اتصال اللسان بأقصى الحنك اللين يسوّغ ذلك، وارتفاع أقصى اللسان نحو أقصى الحنك يسوّغ - أيضاً - وصف أصوات الإطباق بالمستعلية (النعيمي، الدراسات الصوتية واللهجية عن ابن جني، ١٩٨٠ : ٣١٩).

غير إنّ ما يدعو إلى التوقف والتأمل أنه عاد ووصف (الطاء) بأنها مستفلة وليست مستعلية (العكبري ، د.ت : ٥٣٥) ، فإذا كان قد أخطأ في وصفه (للطاء) بأنه مفتوح، وكان قبل ذلك وصفه بالمطبق، فهل وقع في سهو آخر عندما وصف (الطاء) بأنه مستقل ! فهذا يدعو إلى التأمل والتدقيق والوقوف طويلاً، لأن وصف (الطاء) عنده يخالف ما وصفه وهو يقلّد الآخرين، فتارة يصفه بالجهر عندما يتحدث عن الأصوات المجهورة (العكبري ، د.ت : ٥٣٣) ، وتارة يصفه بالهمس عندما يعطي لكل صوت صفاته الخاصة به (العكبري ، د.ت : ٥٣٥).

وربما يكون هناك اضطراب في الفصل الذي أطلق عليه (فصل فيما يجمع لكل حرف من الصفات)، ولا أظن أنه يغفل عن ذلك في مواضع قريبة، وهذه الصفات تترد عليه مراراً وتكراراً عند حديثه عن الظواهر الصوتية، والذي نرجحه إن الفصل الذي عقده للحديث عن صفات الأصوات هو فصل فيه خلاصة ثقافته الصوتية، من دون تقليد، أو كما يراها هو، حتى لو جاءت متعارضة مع من سبقه. ولكن تبقى مسألة عدم توضيحه لأسباب ذلك الاختلاف عائداً في طريق نسبة التقدم إليه .

ويلاحظ - أيضاً - أنه وصف الهمزة بالصوت المستعلي فقال في الهمزة :
(حرف مجهور شديد مستعل منفتح) (العكبري ، د.ت : ٥٣٥).

فمخرج الهمزة هو من أقصى الحلق، أو من المزمار وبعض المحدثين يرجعه
إلى الحنجرة (كانتينو، ١٩٦٦ : ١٢٣) (بشر، ١٩٧٥ : ١٧١).

فيبدو أنّ ذلك يسوّغ إطلاق صفة الاستعلاء عليها، ففي الوصف الحديث يطلق
على أصوات (الغين، والحاء، والعين، والحاء، والهاء، والهمزة) بالأصوات الحلقية
بوصفه العام ، ومخرج (الهمزة) وهو المزمار، وهو أبعد نقطة مخرجية، فبلاشك
يكون هناك نوع من الصعود في اللسان نحو الحنك، لانغلاق فتحة المزمار انغلاقاً
تاماً، فلا يسمح للهواء بالمرور إلى الحلق، إلّا حين تنفجر فتحة المزمار ويكون
انفراجاً مفاجئاً (أنيس، ١٩٧١ : ٨٧).

ومن هنا فليس من البعيد وصفها بالمستعلية، لاسيما أنها من أصوات أقصى
الحلق كما وصفها القدامى، وأخواتها (الغين والحاء) مع الأصوات المستعلية فضلاً
عن أنها من الأصوات التي تتطلب جهداً عضلياً يزيد على ما يحتاج إليه أي صوت
آخر فهو من أشق الأصوات نطقاً (أنيس، ١٩٧١ : ٨٧).
كل ذلك يسوغ للعكبري عدّها من الأصوات المستعلية.

المنحرف :

وصف العكبري (اللام) بالصوت المنحرف وعُلِّل ذلك بقوله: (سمّي بذلك
لانحراف اللسان مع صوته من ناحيتي مستدق اللسان فوق ذلك وبهذا خالف الشديدة
والرخوة) (العكبري ، د.ت : ٥٣٣).

وقد بيّن سيبويه كفيّة مخالفة (اللام) الأصوات الشديدة والرخوة من خلال
وصفه (اللام) فقال عنه: (وهو حرف شديد جرى فيه الصوت لإنحراف اللسان مع
الصوت ولم يعترض على الصوت كاعتراض الحروف الشديدة وهو (اللام) وإن

شئت مددت فيها الصوت وليس كالرخوة، لأن طرف اللسان لا يتجافى عن موضعه وليس يخرج الصوت من موضع (اللام) ولكن من ناحيتي مستدق اللسان فويق ذلك) (سيبويه ، ١٣١٧هـ : ٢ / ٤٠٦)

فوصف (اللام) بالانحراف يرجع إلى أن النفس ينحرف إلى الجانبين عند النطق به، وهو وصف مطابق للوصف الحديث، فكثير من المحدثين يصف (اللام) بالجانبى والمنحرف (الحمدة ، ٢٠٠٢ : ١٣١) (أيوب، ١٩٦٣ : ١٩١).

المكرّر :

وهو صوت الراء (سميت بذلك لتكرير صوتها وانحرافها إلى مخرج اللام) (العكبري ، د.ت : ٥٣٣).

وصفة المكرر تطلق على الراء عند المحدثين أيضاً، ويحصل ذلك بأن يطرق طرف اللسان على اللثة طرّقاً ليناً يسيراً مرتين أو ثلاثة (أنيس، ١٩٧١ : ٦٣). وهو ارتعاد طرف اللسان، فيأخذ اللسان وضعاً مسترخياً في موضعه المناسب (بشر، ١٩٧٥ : ١٨٧).

اللينّة :

وهو وصف أطلقه على صوتين اثنتين وهما (الواو والياء)، وسميتا بذلك (لأن مخرجهما يتسع لهواء الصوت أشد من اتساع غيرهما) (العكبري ، د.ت : ٥٣٣) . و(الواو والياء) يطلق عليهما بالوصف الحديث أشباه الحركات، أو أنصاف حركات، وذلك لأنهما يمثلان مرحلة وسطى بين الأصوات الرخوة والحركات، لاتساع مخرجهما، وموضع اللسان معهما قريب الشبه بموضعه مع أصوات اللين أو الحركات الطويلة، فيسمع لهما نوع ضعيف من الاحتكاك، (فالياء والواو) هما المرحلة التي يمكن أن ينتقل الصوت الساكن إلى صوت لين، فهما صوتان انتقاليان

يتكونان من موضع صوت اللين، ثم ينتقلان بسرعة إلى موضع آخر من أصوات اللين ومن أجل الطبيعة الانتقالية لهما، ولقلة وضوحهما في السمع إذا قيسا بأصوات اللين يمكن عدّهما من الأصوات الساكنة (أنيس، ١٩٧١ : ٤٤).

وقد وصف العكبري صوت (الياء) بالثقل الخفي فقال : (الياء حرف مجهور شديد مستقل منفتح ثقل خفي) (العكبري ، د.ت : ٥٣٣) .

ويبدو أنّ وصفه بالثقل الخفي، جاء بسبب طبيعته الانتقالية، والخفي لقلّة وضوحه السمعي، أو إنه بالرغم من اتساع مخرجه، فإن ذلك لا يمنع من سماع نوع من الحفيف، أو الاحتكاك عند النطق به، كما أنه وصف (الواو) بالممتد فقال عنه : (الواو حرف مجهور شديد ممتد منطبق لّين) (العكبري ، د.ت : ٥٣٦). ووصفه بالممتد، لامتداد الهواء معه عند النطق به، فالعلماء العرب يطلقون على (الواو والياء) أصوات المد واللين، ويبدو أنّ سبب وصفه (الواو) بالممتد من دون الياء، لأنّ الامتداد بالواو أوضح منه بالياء، وكأنه يصل إلى منطقة الشفتين عند استدارتهما عند النطق بالواو، والشفتان تتأثران بنطق هذين الصوتين، فتتفرجان مع (الياء) وتستديران مع (الواو)، بل هي أوضح من الياء بالاستدارة وهذا ما جعل القدامى ينسبون مخرج الواو للشفّتين (أنيس، ١٩٧١ : ٤٤).

الهاوي :

مصطلح أطلقه العكبري على الألف فقال : (الهاوي وهو الألف سمّيت بذلك لزيادة اتساع هواء صوته على الواو والياء) (العكبري ، د.ت : ٥٣٤) وفي موضع آخر وصفه بالهوائي (العكبري ، د.ت : ٥٣٥).

وقد ذكر الذين سبقوا العكبري أنّ الألف أشد امتداداً وأوسع مخرجاً (أبن جني،

١٩٥٤ : ٧٢/١).

ويبدو أنّ اتساع مجرى الصوت فيه، وامتداده في الفم، جعلهم يرونه كالذي يهوي في الفضاء حتى أنه وصفه بالهوائي، وبذلك لا يكون اللسان معه مستندا إلى شيء ولا يتحرك نحو شيء ولا يحتك معه الهواء عكس (الواو والياء) التي يضم الناطق الشفتين عند النطق بالواو ويرفع اللسان قبل الحنك عند النطق بالياء (سيبويه، ١٣١٧هـ : ٤٠٦/٢).

الصفير :

اطلق العكبري على أصوات (السين والصاد والزاي) صفة الصفير، ولم يحدد معناها، وإنما أورد الأصوات الثلاثة، وأعطى لها صفاتها، وقال في نهاية الكلام عنها: (وهذه الثلاثة الأخيرة فيها صفير) (العكبري ، د.ت : ٥٣٥).

غير أنّ العلماء العرب، ولا سيما علماء التجويد أوضحوا سبب صفيرها فقالوا : (وإنما سمّيت بحروف الصفير لصوت يخرج معها عند النطق بها يشبه الصفير) (طالب، ١٩٧٣ : ١٠٠).

أو (الصفير حدة الصوت كالصوت الخارج عن ضغط ثقب) (الطحان، ١٩٨٤ : ٩٤).

وصفة الصفير اثبتها المحدثون للأصوات الثلاثة، لما يصحبها من صفير لقوة الاحتكاك معها لمرور الهواء من خلال منفذ ضيق (عمر ت.، ١٩٧١ : ٨٥) (عمر د.، دراسة الصوت اللغوي، ١٩٨٥ : ٩٨).

وينتج الصفير الذي يصاحب هذه الأصوات الثلاثة عند النطق بها من قوة الاحتكاك الناتج عن تضيق الكبير لمجرى الهواء في أثناء نطقها بالقياس إلى غيرها، وعندما يجبر الهواء على التحرر من المنفذ الضيق بحدة ضد اللثة والأسنان يعطي أزيزاً مسموعاً وهو ما اصطلح على تسميته بالصفير (الحمد، ٢٠٠٢ : ١٢٧).

ومن هنا يتضح أن وصف أصوات (السين والصاد والزاي) بالأصوات الصفيرية موضع اتفاق قديما وحديثا.

التفشي :

ورد مصطلح التفشي عند العكبري عندما وصف صوت الشين فقال عنه :
(الشين حرف مهموس رخو متسفل متفش) (العكبري ، د. ت : ٥٣٥).
ولم يحدد طبيعة هذه الصفة وأعطاهما - أيضاً - صفة لصوت الفاء فقال :
(الفاء حرف مهموس رخو متسفل متفش) (العكبري ، د. ت : ٥٣٥).
فصفة التفشي يوصف بها صوتان اثنان هما (الشين والفاء)، ولكنها أكثر لصوقا بالشين، لكثرة انتشار خروج الهواء عند النطق بها (طالب، ١٩٧٣ : ١٠٩).
وقد أضاف العلماء القدامى أصواتاً أخرى تتصف بالتفشي منها (الضاد والفاء والناء) (المبرد، د. ت : ٢١١/١).
وعلى الرغم من أن الهواء ينتشر كثيرا عند النطق بهذه الأصوات، فإن الانتشار في (الشين) يكون أكثر، فاتفق العلماء على أن صفة التفشي خاصة بالشين، ولم يصف أكثرهم تلك الأصوات بالتفشي (المرعشي، ٢٠٠١ : ١٥٩).
وعلى الرغم من شيوع هذه الصفة في الدراسات الصوتية القديمة، فإنها لم تكن ذات بال عند أكثر المحدثين، ولم يتناولوها بالدرس ولم يجعلوها من الصفات الأساس للأصوات اللغوية (الحمد، ٢٠٠٢ : ١٣٥).

الغنة :

وصف العكبري صوتي (النون والميم) بأصوات الغنة، وعَلَّ ذلك بقوله :
(وسميت بذلك لغنتها الخارجة من الأنف) (العكبري ، د. ت : ٥٣٣)

وهو تعليل غير واضح سوى أنه يجعل الغنة سببا لخروجها من الأنف، غير أن سيبويه كان أكثر توضيحاً لذلك فقال : (لأن ذلك الصوت غنة من الأنف فإنما تخرجه من انفك واللسان لازم لموضع الحرف، لأنك لو أمسكت بأنفك لم يجر معه الصوت وهو النون وكذلك الميم) (سيبويه ، ١٣١٧هـ : ٤٠٦/٢).

ويجري صوت الغنة في تجويف الأنف من غير عائق، ولو أوقف الناطق اهتزاز الوترين وهو مصدر الجهر الذي يجعل هذه الأصوات مسموعة في أثناء نطق الأصوات الأنفية، أدى ذلك إلى اختفاء الصوت (عمر د.، دراسة الصوت اللغوي، ١٩٨٥ : ٩٥ ، ١٠١).

الاستطالة :

لم يذكرها في الصفات المفردة، وإنما ورد ذكرها عندما أعطى الصفات الكاملة لصوت (الضاد) فقال : (الضاد حرف مستطيل مجهور مستعل منطبق رخو) (العكبري ، د. ت : ٥٣٣)

فالاستطالة صفة خاصة بصوت (الضاد)، والمراد بالاستطالة هو استطالة مخرج (الضاد) واتصاله بمخرج (اللام)، وبلا شك أن استطالة المخرج سيقود حتماً إلى استطالة الصوت فيستغرق ذلك زمناً أكبر، ولما كانت الضاد القديمة التي وصفها القدامى قد اختفت واختفى وصفها معها، والذي لم يعد ينطبق على (الضاد) التي تنطق اليوم بالنطق الفصيح المعاصر فإن الاستطالة - أيضاً - قد اختفت كما اختفى النطق القديم.

فيما يجتمع لكل حرفٍ من الصفات:

تحدّث العكبري عن الصفات المشتركة أو التي تجتمع في صوت واحد، وتكون خاصّةً به، في مبحث عام ، مرتّبةً ترتيباً متزناً، أعطى من خلاله لكل صوت صفاته التي تميزه من غيره ، ورتّب تلك الأصوات بحسب مخارجها ، ليكون تتمّة لما بدأ به من وصف المخارج، وخاتمةً تجمل ما قام بتفصيله من خلال حديثه عن مخارج الأصوات وصفاتها ، فجاء ترتيبه كما في أدناه (العكبري ، د. ت : ٥٣٦) :

الهمزة : حرفٌ مَجْهُورٌ شديدٌ مُسْتَعِلٌ منفتح.

— الألف : حرفٌ هوائيٌّ مجهورٌ شديد.

— الهاء : حرفٌ مهموسٌ رخوٌ خفيٌّ ضعيف.

— العين : حرفٌ مجهورٌ شديدٌ مستقلٌّ رخوٌ منفتح.

— الحاء : حرفٌ مهموسٌ مستقلٌّ رخوٌ منفتح.

— الغين : حرفٌ مجهورٌ مستعلٌّ رخوٌ منفتح.

— الخاء : حرفٌ مستعلٌّ شديدٌ منفتح.

— القاف : حرفٌ مستعلٌّ شديدٌ منفتح.

— الكاف : حرفٌ مهموسٌ شديدٌ متسفلٌ منفتح.

— الجيم : حرفٌ مجهورٌ شديدٌ متسفلٌ متفش.

— الشين : حرفٌ مهموسٌ رخوٌ متسفلٌ متفش.

— الياء : حرفٌ مجهورٌ شديدٌ متسفلٌ منفتحٌ ثقيلٌ خفي.

— الضاد : حرفٌ مستطيلٌ مجهورٌ مستعلٌّ منطبقٌ رخو.

— الصاد : حرفٌ مهموسٌ رخوٌ مستعلٌّ مطبق.

— السين : حرفٌ مهموسٌ متسفلٌ رخوٌ منفتح.

— الزاي : حرفٌ مجهورٌ متسفلٌ رخوٌ منفتح . وهذه الثلاثة فيها صفير.

- الظاء : حرفٌ رخوٌ مجهور مستعل مطبق.
- الذال : حرف مجهور {مستقل} رخو منفتح.
- الثاء : حرف مهموس متسفل رخو منفتح.
- الطاء : حرف مهموس شديد مستعل مطبق.
- الدال : حرف مجهور شديد متسفل منفتح.
- التاء : حرف مهموس شديد متسفل منفتح.
- الراء : حرف مكرر مجهور شديد متسفل منفتح.
- اللام : حرف مجهور منحرف شديد متسفل منفتح مرقق.
- النون : حرف مجهور شديد متسفل منفتح ذو غنة.
- الفاء : حرف مهموس رخو متسفل متفش.
- الباء : حرف مجهور شديد متسفل.
- الميم : حرف مجهور شديد متسفل منطبق.
- الواو : حرف مجهور شديد ممتد منطبق لين.

في هذا الموضوع أعطى العكبري الأوصاف الكاملة لكل صوت ، وهي طريقة ذات قيمة منهجية متقدمة، تجمل ما قام به من وصف تفصيلي لها فيما مر في موضوعي مخارج الأصوات وصفاتها. والملاحظ في وصفه هذا أنه منح بعض الأصوات صفات لم نجدها عند سابقيه، فهو يختلف معهم، ويخالفهم في ذلك، فقد دأب العلماء الذين جاءوا بعد سيبويه على تقليده في مبحث الأصوات، وينقلون عنه ما قاله في مخارج الأصوات وصفاتها، فلا نجد عالماً إلّا قام بترديد ألفاظه، وعلى الرغم من وجود بعض المحاولات التي قام بها بعض العلماء للخروج من سيطرة نصّ سيبويه على تفكيرهم، وسطوته على ما يكتبون، كمحاولات ابن جني في القرن الرابع الهجري، والزمخشري في القرن السادس الهجري، وابن الجزري في أوائل

القرن التاسع الهجري، فإن الاتجاه العام يؤشر عدم وجود شيء جديد أضافه هؤلاء على كلام سيبويه في أصوات اللغة سوى بضعة مصطلحات ترددت في كتبهم (أنيس، ١٩٧١ : ١٠٢) ويمكن أن تكون دراسات ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ) نقله مهمة في الدراسات الصوتية التي درست الأصوات بأسلوب ومنهج يختلف عما هو موجود عند سيبويه، فقد جاءت رسالته (أسباب حدوث الحروف) لتعطي منطلقاً جديداً في دراسة الصوت اللغوي من جميع جوانبه، فأشار إلى جوهر الصوت، وأسبابه، ووصف أعضاء النطق، وجاء بمصطلحات لم يعرفها غيره (ابن سينا، ١٩٨٣ : ٢).

والذي نريد أن نقف عليه أن العكبري قد حاول إضافة شيء إلى دراسة علم الأصوات من خلال الفصل الذي عقده في آخر كتابه لعرض الأصوات، أو قام بترتيبها ترتيباً منظماً، وعلى وفق ما درسه، أو رتبته المحدثون على ما فيها من اختلافات في الأوصاف، ففي وصفه مع أنه وصف (الطاء) بالجهر عندما تحدث عن الأصوات المجهورة (العكبري، د.ت : ٥٣٣) فابعد عنها صفة الجهر، ونصّ على أنها مهموسة، وقد بيّنا احتمالات لذلك الوصف فيما مرّ، كما أنه لم يصف (القاف) بالمجهورة، وهو يتحدث عن وصفها الشامل المتقدم، مع أنه وصفها بالمجهورة عندما تحدث عن صفات الأصوات، ولا يوجد مسوغ لإسقاط صفة الجهر عن (القاف) في وصفها الشامل، وهل كان على بيئة وقناعة تامة، أو انه كان شاكاً في صفتها ؟ ومع ذلك فإن ما قام به يدعو إلى التأمل والتوقف عنده، كما أنه غاير في عدد الأصوات الشديدة، فقد ذهب القدماء إلى أن الأصوات الشديدة في العربية (ثمانية) مجموعة بقولهم (أجدت طبقك)، ولكن العكبري أضاف إليها سبعة أخرى وهي (الألف، العين، الخاء، الراء، اللام، الياء، الواو). وكان يمكن أن نفترض أنه يعدّ (الألف) عيناها (الهزة)، لولا أنه عدّ (الهزة) صوتاً شديداً أيضاً.

والأمر يصدق على الأصوات المستعلية فقد غاير بينها - أيضاً - فهي عند القدماء (سبعة)، فأضاف إليها (الهمزة)، كما أنه أسقط صفة الهمس عن (الخاء)، وكذلك (القاف) لم يصفه لا بالهمس ولا بالجهر.

أمّا أصوات الإطباق فهي أربعة عند القدماء، ومنهم العكبري الذي يعدّها أربعة كما مرّ، ولكنه هنا يضيف إليها (الواو) فيقول فيه: (الواو: حرف مجهور شديد ممتد منطبق لَيْن).

فإعطاء صفات لم يذكرها من سبقه لأصوات ليست بالقليلة يعطيه تفرداً، يمكن أن يكون إشارة على تذوقه للأصوات - في أقل تقدير - في الفصل الذي عقده للصفات الكاملة لكل صوت، وقد رسخ في ذهنه أن لتلك الأصوات صفات لصيقة بها على وفق تذوقه لها، وليس من الإنصاف أن نفترض أنه قد توهّم في وصف تلك الأصوات؛ لأن من سبقه لم يذكرها. فالدراسة تسلّط الضوء على جهده الصوتي، وكيفية تعامله مع الأصوات، من خلال تتبع أقواله في وصف الأصوات سواء التي ذكرها في تصنيفه المشهور المتابع به العلماء أم ذلك الذي أفرده للأصوات ذاكراً صفاتها مجتمعة، وقد تبين للمطلع عندما يقف عليها أن العكبري أضاف شيئاً جديداً مهما كانت هذه الإضافة، وهي في حقيقتها كبيرة في قيمتها العلمية والمنهجية - كما مرّ بنا - ويجدر النظر إلى معطيات الفكر الصوتي عند العكبري بمنظار عصره الذي كان فيه العلماء يسايرون ما ورد في كتاب سيبويه عن الأصوات، وإبراز القيمة العلمية لتلك الاجتهادات التي أدلى بها العكبري، فيما يخص بعض الأصوات وما تتصف به من صفات، ولا توجد غرابة البتة في أن يقرّر العكبري صفات للأصوات تختلف عن سابقه؛ لأن صفات الأصوات التي جاء بها سيبويه بقيت يرددها من جاء بعده من دون اجتهاد، أو تذوق، أو تغيير، ما خلا بعض المحاولات عند بعض

اللغويين، وعلماء التجويد، وبعض الفلاسفة، ولكن لا يمكن الاختلاف في أن عمل سيبويه بقي هو النهج الذي ينتهجه كل من درس الأصوات العربية.

لذلك فإن العكبري عندما يصف (الواو والياء والألف) بالشديدة، وهي ليست كذلك عند القدماء، فإن مجاله الذوقي يسعف ذلك من حيث إن تلك الأصوات توصف (بالتوسطة)، أي بين الشديدة والرخوة، وهي ثمانية أصوات يجمعها قولهم (لم يروعنا)، وعلى الرغم من هناك من يرى أن المديّات توصف بالرخوة، وليست بالتوسطة، لأنها حركات خالصة، فإنّ الرأي المشهور أن (الواو والياء) التي قصدها العلماء ووصفوها بالتوسطة ليستا حركتين، وإنما هما غير مديتين، وتخرج منها الألف فلا تضم إليها، لأنها حرف مد دائماً (بشر، ١٩٧٥: ١٦٩-١٧٠). ومهما يكن من أمر فإن هناك من ذهب إلى توسط أصوات (أ، و، ي) (هلال، ٢٠٠٥: ٥٩).

وبناءً على ذلك فوصف تلك الأصوات (أ، و، ي) بالشديدة عند العكبري لربما نظر إلى جانب الشدة فيها من حيث النطق. لانحباس الصوت عند النطق بها. ولم يلحظ أو يتحسس جريان الصوت بشكل لا يمنعه عائق أو احتكاك قوي يحبسه عن الجريان. وهو الوضع الذي يكون فيه الصوت الرخو. فكانت تلك الأصوات قد اكتسبت صفة الشدة بما توافر لها من آليات نطقية لحظها العكبري. وهذا من معطيات النطق المتباينة بين الأصوات الشديدة والأصوات الرخوة.

لذلك جاء الوصف العام للأصوات بحسب إيرادها بصفات الكاملة داخل علاقات متباينة، وتدرجات مختلفة، ومتنافرة يجمع بينها الاتفاق والاختلاف، فالأوصاف لم تكن اعتباطية، أو استجلاب لما رددته السابق، وإنما هي محصلة اجتهادية، ذات أبعاد منهجية وذوقية، تدعو إلى تجاوز منهج التقليد الذي هو ترديد لما قيل، وبوساطة النقل وترديد لمقولات جامدة، متناثرة، أو متجمعة، تركز على ظواهر النصوص، فأعطى العكبري في وصفه للأصوات معرفة إنتاجية تحمل الجودة، حتى

لو كانت بأفكار بسيطة. مفسرة بأدوات إنتاجية بحسب معارف عصرها، وإمكانية تلك الأدوات في الحفاظ على النصوص الموروثة، وفهمها فهماً واقعياً، فيه نزعة إبداعية أكثر انفتاحاً، لا تعتمد فرضيات جاهزة، وتوصيفات جامدة تجعل من الأعمال الصوتية القديمة علامات للتراث الصوتي التي تحيل كل محاولة من محاولات الإنتاج والإبداع الصوتي ناقصة مالم تضع في خلدتها السير على منوال تلك الأعمال. وجاءت محاولة العكبري لتعطي دفعة قوية لإعادة قراءة التراث الصوتي قراءة تكاملية من حيث الإنتاجية المعرفية التي يصنعها الإبداع، ويصقلها الفكر وتحركها المحاولة. فما قام به العكبري من منح صفات لبعض الأصوات قد تعطيّه بعض التفرد. نابع من مسألة ذوقية، قد يشترك معه أي عالم يقوم بما قام به من تذوق صوتي.

فالسامع يستطيع أن يدرك ما إذا كان الصوت يبقى مستمراً على حالة واحدة أو متشابهاً في جميع أجزائه أو لا ، ولكن ما دام السامع يشعر بشيء منسجم الجرس فهذا يشكل صوتاً واحداً، وهنا ليس من المهم مدة الصوت، وتطويله، وخفته، وثقله كعلامات موسيقية، بل كيفية التأثير والانطباع به (فنيني، ٢٠١٦: ٦٥).

فإذا كانت الأصوات العربية تقسم إلى شديدة ورخوة ومتوسطة وتختلف درجة التميز بين هذه الأصوات، فقد أخرج سيبويه (الضاد) من الأصوات الشديدة (سيبويه ، ١٣١٧هـ - ٢ / ٤٠٦)، في حين وضعها العكبري معها. عندما أعطى وصفاً شاملاً للأصوات مع أنه أخرجها منها وتابع سيبويه ذلك عندما عرّف الشديدة والرخوة.

وما ذهب إليه من وصف (الهمزة) بالمستعلية مخالفاً من سبقه لربما مرده أنه يرى في (الهمزة) استعلاء متأثراً من صفة الشدة. وبما أن صوت (الهمزة) يولد في أبعد نقطة مخرجية، فمن الممكن أن يكون هناك نوع من صعود اللسان نحو الحنك، وهذا ما ترتّب عليه أن يصف (الهمزة) بالاستعلاء، ويلحقه العكبري معها. متخذاً

منهجاً يصف ملح وطريقة كل صوت، وتحديد خصائصه النطقية والسمعية التي من المفترض أنها تنتظم الصوامت كلها في مجموعات وعوائل من الأصوات التي تتمتع بخصائص تصنيفية، من طريق عملية التلفظ يمكن تفريق الوحدات التي تنتمي إلى نفس العائلة (غلي، ٢٠٠٨ : ١٤٢).

الخاتمة :

الدراسات الصوتية عند العرب لا يمكن النظر إليها من نافذة سيبويه وحده، على الرغم من أنه قدّم دراسة صوتية محكمة، تدل على براعته، وقدرته، وتمكنه من علم الأصوات، إذ إن البحث في مؤلفات من جاء بعده، ولاسيما علماء النحو المتأخرين الذين أخذوا مقدّمة سيبويه في الأصوات وجعلوها في مقدّمة الإدغام، يخيل للقارئ أنهم قد تابعوا سيبويه في تفاصيل الأصوات على حيّز المخارج والصفات، والتعاملات، حيث كل دراسة صوتية تحمل عنواناً يشير إلى عالم نحوي أو لغوي في مجال الصوتيات يعطي انطباعاً أنها دراسة تقليدية لا تأتي بالجديد، وهذا ينطبق على تلك الدراسات التي لا تنظر لعلم الأصوات إلا من نافذة سيبويه، وتعتمد المنهجية الجاهزة في البحث والتلقين، غير إنّ ذلك لا يمكن أن يخدم البحث الصوتي سواء أكان قديماً أم حديثاً، فالتراث العربي زاخر بالدراسات التي أضافت على ما جاء به سيبويه، وإن إعادة البحث في التراث الصوتي عند العرب، والبحث في بطون المصنفات القديمة والوقوف عندها، تأملاً، ومراجعة، وتدقيقاً، ومعارضة. يمكن أن يفتح الأبواب لإعادة النظر، والأحكام، والبناءات، والتصورات، ومن هنا وقفت الدراسة أمام ما جاء به العكبري الذي أضاف إضافات بارزة وواضحة في الدراسة الصوتية، فوافق المحدثين كثيراً، وخالف سيبويه ومن سبقه في مواضع تدعو للتأمل. وتناول الأصوات بمنهج يقارب منهج المحدثين، ولاسيما الفصل الذي عقده للأصوات، وأعطى كل صوت صفاته المجتمعة فيه، وهذا الفصل لوحده يعطي

مؤشرا على أن العلماء العرب لم يكتفوا بالنقل عن سيبويه، وإنما كان لهم منهجهم الخاص بهم.

إنّ هذه الدراسة محاولة تمثل دعوة صريحة لإعادة النظر في التراث الصوتي عند العرب، للبحث عن الجهود التي جاءت بإضافات، ولكن لم تصل إليها جهود البحث وأقلام الباحثين. فضلاً عن أنها حاولت أن تبرز نتاج عالم عربي في مجال الصوتيات، تحسب في منهجها أنها جاءت معه بجديد يمكن أن يشكل إسهامة في البحث الصوتي عند العرب .

المصادر والمراجع

- ١- أسباب حدوث الحروف :ابن سينا (٤٢٨هـ) ، تحقيق محمد حسن الطيّان ويحيى مير علم ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٣ .
- ٢- أسس علم اللغة : ماريوباي ، ترجمة : د. أحمد مختار عمر ، منشورات جامعة طرابلس ، كلية التربية ، ١٩٧٣ .
- ٣- أصوات العربية بين التحول والثبات : د. حسام سعيد النعيمي ، دار الكتب للطباعة والنشر ، جامعة الموصل ، د. ت .
- ٤- أصوات اللغة : د. عبد الرحمن أيوب ، دار التأليف ، مصر ، ط ١ ، ١٩٦٣م .
- ٥- الأصوات اللغوية : محمد علي الخولي ، مؤسسة الفلاح للترجمة والنشر والتوزيع ، الأردن ، ط ١ ، ١٩٩٠ .
- ٦- الأصوات اللغوية ، د. إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط ٤ ، ١٩٧١م .
- ٧- إنباه الرواة على أنباء النحاة . جمال الدين القفطي (ت ٦٢٤هـ) ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الكتب ، ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م .

- ٨- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، بيروت ، دار الفكر ، ط ٢ ، ١٩٧٩م .
- ٩- البلغة في تراجم النحو واللغة ، مجد الدين الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ) ، تحقيق: محمد المصري ، دار سعد الدين ، دمشق ، ط ١ ، ٢٠٠٠م .
- ١٠- تجويد القرآن الكريم من منظور علم الأصوات الحديث: د. عبد الغفار حامد هلال ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٥م .
- ١١- التحديد في الاتقان والتجويد: أبو عمرو الداني (ت ٤٤٤هـ) ، تحقيق : د. غانم قدوري الحمد ، طبعة جامعة بغداد ، ١٩٨٧م .
- ١٢- التراث اللغوي العربي ، بوهاس .جيوم كولو غلي ، ترجمة : د. محمد حسن عبد العزيز ، ود. كمال شاهين ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ط ١ ، ٢٠٠٨م .
- ١٣- التكملة لوفيات النقلة :عبد العظيم عبد القوي المنذري (ت ٦٥٦هـ) ، تحقيق: بشار عواد معروف ، مؤسسة الرسالة ، ط ٣ ، ١٩٨٥ .
- ١٤- تلخيص الآداب في معجم الألقاب : ابن الفوطي (ت ٧٢٣هـ) ، تحقيق: د . مصطفى جواد ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ، ١٩٦٣م .
- ١٥- جهد المقل : محمد المرعشي (ت ١١٥٠هـ) ، تحقيق : سالم قدوري الحمد ، ط ١، دار عمار ، عمان ، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م .
- ١٦- الدراسات الصوتية واللهجية عند ابن جني : د. حسام سعيد النعيمي ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، جمهورية العراق ، دار الرشيد للنشر ، ١٩٨٠م .
- ١٧- دراسات في علم أصوات العربية : د. داوود عبده ، مؤسسة الصباح للنشر والتوزيع ، د. ت .

١٨- دراسة السمع والكلام : د. سعد مصلوح ، عالم الكتاب ، القاهرة ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

١٩- دراسة الصوت اللغوي : د. أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٨٥م .

٢٠- دروس في علم الأصوات العربية ، جان كانتينو ، تعريب : صالح القرمادي ، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية ، تونس ١٩٦٦م .

٢١- الرعاية لتجويد وتحقيق لفظ التلاوة ، مكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ) ، تحقيق: د. أحمد حسن فرحات ، دمشق ، ١٩٧٣.

٢٢- سر صناعة الإعراب : أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ) ، تحقيق: مصطفى السقا ومحمد الزفزاف وإبراهيم مصطفى وعبدالله أمين ، مطبعة المصطفى الحلبي وأولاده ، مصر ، ط ١ ، ١٩٥٤م .

٢٣- شرح شافية ابن الحاجب : رضي الدين الاستربادي (ت ٦٨٨هـ) ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد وآخرين ، مطبعة حجازي ؟، القاهرة ، ١٣٥٨هـ .

٢٤- طبقات النحاة واللغويين : أبو بكر الزبيدي (ت ٣٧٩هـ) ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ٢ ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٣م .

٢٥- علم الأصوات العام : د. بسام بركة ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، د. ت.

٢٦- علم اللغة : مقدمة للقارئ العربي د. محمود السعران ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٢م .

٢٧- علم اللغة العام ، الأصوات ، د. كمال محمد بشر ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٥م.

- ٢٨- العين : الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠هـ) ، تحقيق: د. مهدي المخزومي ، ود. إبراهيم السامرائي ، مطابع الرسالة ، الكويت ، ١٩٨٠م .
- ٢٩- الكتاب لسيبويه (ت ١٨٠هـ) نسخة مصورة على طبعة بولاق ، ١٣١٧هـ ، مطبعة المثنى ، بغداد .
- ٣٠- الباب في علل البناء والإعراب ، أبو البقاء العكبري (ت ٦١٦هـ) ، تحقيق: محمد عثمان ، مكتبة الثقافة الدينية ، ط ١ ، القاهرة .
- ٣١- اللغة ، فندريس : ترجمة عبد الحميد الدواخي ، ود. محمد القصاص ، القاهرة ، ١٩٥٠م .
- ٣٢- محاضرات في علم اللسان العام: فرديناند دي سوسير ، ترجمة: عبدالقادر فنيني ، دار نشر افريقيا لالشرق ، ط ٢ ، ٢٠١٦ .
- ٣٣- مخارج الحروف وصفاتها : أبو الأصبع الإشبيلي المعروف بابن الطحان (ت ٥٦٠هـ) ، تحقيق: محمد يعقوب تركستاني ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٤م .
- ٣٤- المدخل إلى علم أصوات العربية : د. غانم قدوري الحمد ، منشورات المجمع العلمي العراقي ، ٢٠٠٢م .
- ٣٥- المدخل إلى علم اللغة، ومناهج البحث اللغوي: د. رمضان عبد التواب: مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٣، ١٩٩٧ .
- ٣٦- معجم الأدباء : ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ) ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٣٦م .
- ٣٧- معجم البلدان ، ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ) ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٧م .
- ٣٨- المقتضب : أبو العباس المبرد (ت ٢٨٥هـ) ، تحقيق: عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب ، بيروت ، د. د. ت .

٣٩- المقرب : علي بن مؤمن المعروف بابن عصفور (ت٦٦٩هـ) ، تحقيق :
أحمد عبد الستار الجواري وعبد الله الجبوري ، مطبعة العاني ، بغداد ،
١٩٨٦م .

٤٠- مناهج البحث في اللغة : د. تمام حسّان ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ،
المغرب ، ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م .

٤١- النشر في القراءات العشر : محمد بن محمد الجزري (ت٨٣٣هـ) ، مراجعة:
علي محمد الضباع ، دار الفكر ، بيروت ، د. ت .

٤٢- نكت الهميان في نكت العميان ، الصفوي (ت٧٦٤هـ) ، تحقيق: أحمد زكي ،
مصر ، ١٩١١م .

٤٣- نهاية القول المفيد : محمد مكي نصر ، مطبعة البابي الحلبي وأولاده ، مصر ،
١٣٤٩هـ .